أَجَلٌ مُسَمًّى

الكتاب: **أَجَلٌ مُسَمًّى**

المؤلف: **حصة الجارودي**

التصنيف: **رواية**

الناشر: **دار ملهمون للنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى: **يناير** 2021

التصنيف العمري: 17+

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-9948-25-023-4

إذن الطباعة: MC-01-01-0607362

الطباعة : Masar printing & publishing, Dubai

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

جميع حقوق الطبع و إعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لملهمون للنشر والتوزيع، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من ملهمون للنشر والتوزيع.

darmolhimon

www.darmolhimon.com

0097165551184

Darmolhimon | UAE, Dubai,
Silicon Oasis | Park Avenue
Building, Office 405

حصة الجارودي

أَجَلٌ مُسَمًّى

إهداءٌ

إلى كل مَن سيعي القصة الحقيقية، هذه الكلمات مهداةٌ لك

إهداءٌ أغلى
لأنَّ القدر أراد أن يتمِّمَ مشيئة اللّه جمعنا مرتين، وفي الثالثة أصاب
إلى مَنْ كلماته دعاء

إهداءٌ مختلفٌ
إليها دائمًا وأبدًا..
دُمْتِ

المقدمة

عزيزي القارئ..

ما ستقرؤه بين دفَّتَيْ هذا الكتاب ليس من وَحْيِ الخيال، بل هو صور من الواقع الذي نعيشه رُسِمَتْ بألوان مختلفة؛ ليستسيغ القارئ منظرها، وبعض منها هُوِّل ليصل المعنى لقلوبنا.. صورٌ أخرى هي تجريدية تُرِكَتْ حرية تفسيرها لقارئها؛ علَّه إن لمسها يسعى بشكل، أو بآخر لتغييرها..

الأهمُّ من المهمّ، أنت هنا والرحلة على وشك أن تنتهي لتبدأ الرحلة (الأقوى، الأقسى، الأحق، الأغرب).

تشير الساعة إلى الثالثة، وثلاث عشرة دقيقة، الطريق ممطر، والوجهة غير معلومة بالنسبة لـ"ميث" بعد أن خرجت من عملها مستاءةً من عدم تقدير رؤسائها على كلِّ المجهود الذي قامت به على امتداد تسعة أشهر.. كانت تريد فقط أن تقود في أحد الشوارع الخارجية للمدينة على طريق جبلي تظهر عليه الخضرة باستحياء في موسم الشتاء؛ ولأنها كانت تتأمَّل ذلك الطير الذي لم تعرف نوعه؛ أثارها صوت صراخه الذي كأنه ينذر بقدوم مصيبة، لم تنتبه إلى كل إشارات التحويل التي كانت أمامها، ثم لم تستطع السيطرة على السيارة بعد أن تدحرجت إلى شقِّ تلك التحويلة.. ميث لم تخف في لحظتها، بل اكتفت بأن تغمض عينيها لتترك تحديد مصيرها للقدر..

عجيب هو الموت.. يجعل من الزمن أداة كمقبض الباب — منذ الولادة إلى لحظة الاصطدام، كل تلك اللحظات.. أعني لحظات بداية مراحل الموت هي كلحظة وضع يدك على مقبض الباب لتفتح بوابة جديدة في حياتك. وإن كنت تتساءل ماذا يحدث بعد فتح الباب، فمحرَّمٌ عليك معرفة ذلك، إلّا حين تصل إليه بنفسك.

ميث لم تستطع فتح الباب؛ لأنه كان عالقًا؛ ولأن نورًا ما كان قد حجب قدرتها عن التركيز، وحتى النظر ممّا أدّى في لحظات لإفقادها الوعي مجدّدًا.

حين أفاقت مجدّدًا رأت نفسها وهي تطير، كم كان الشعور جميلًا بالنسبة لها! وكم تمنَّتْ منذ نعومة أظفارها أن تحلِّقَ عاليًا ولكنه شعورٌ لم يخلُ من الخوف — لأن الإنسان بطبيعته يخاف إن فعل شيئًا خارقًا للعادة.

النظرات الأولى كانت للسماء، ثم اتجهت بعينها لترى كلّ شيء حولها، ذلك الجبل الذي تكسو قمته الثلوج، والطيور التي تتراقص في السماء، ثم هناك منظر السحاب - هي أجمل في السماء ممَّا هي عليه من الأرض.

شيء ما يشدُّها إلى الأرض، بدأت تسمع أصواتًا غريبة.. صوت سيارة الإسعاف وأصوات بشرية أخرى، هي تخاف النظر إلى الأسفل، ولكنّ شيئًا ما يجبرها.. لم يكن أي شيء، بل كان جسدها من يفعل ذلك، بل على وجه التحديد محاولات المسعف لإعادة النبض لقلبها هي من كانت تفعل ذلك، مع كل صعقة كهربائية كانت الألوان في عينيها تهتزُّ كتشويش الصور داخل التلفاز القديم. في تلك اللحظة استوعبت أنها روح وجسدها يصارع ليعود.. لتعود نفسًا (الروح إذا كانت في الجسد تُسَمّى نفسًا)، أما ميث لو كانت في يوم غير ذلك اليوم لاختارت أن تعود، ولكنها في تلك اللحظة لم تَدْرِ مَاذا تختار! هل تترك الطيران والعالم الفسيح؟ أم تعود لجسدها لتواصل العيش بتلك الضيقة التي كانت قد اختفت؟!

صوت جاء من خلفها: "هل الاختيار بهذه الصعوبة؟" أفزعها، وجعلها تلوذ بجسدها؛ لأنه حضن أمها، وملاذها الآمن، هي من خوفها لم تتمكن من النظر إلى مصدر الصوت حتى. تكلم مجدّدًا: "أنتم البشر هكذا، دائمًا ما تعيشون النزاعات حتى فقدتم معنى الحياة"، ميث لم تستطع الدخول لجسدها على الرغم من كل تلك المحاولات، حاولت، ثم حاولت حتى بدأت بالبكاء.. نعم

بكاؤها أعاد نبض جسدها ولكنه لم يُعِدْ روحها. "لا بأس يا ميث لا تبكي"، حين سمعت اسمها شعرت ببعض الطمأنينة؛ لأنها ما زالت في طبيعتها البشرية؛ لذا بدأت ترفع رأسها لتتعرف على صاحب ذلك الصوت.. رويدًا رويدًا بدأت ترفع رأسها من القدمين، مرورًا بالرجلين، ثم البطن، فالصدر إلى الرأس، كان بجسد بشري! هل كان حيًّا يستطيع أن يراها؟" سؤالٌ ورد في خاطرها سمعه هو كأنها نطقته بلسانها، فأجاب: "لا لست من جنس البشر حتى، ولكن الله ميَّزنا بالقدرة على التشكُّل".. صمتت ميث وقتًا ليس بالطويل إلَّا أنها أحست وقتها بألَّا شيءَ أسوأ قد يحدث، فهي لم تستطع العبور، أو العودة إلى جسدها، بل هي عالقة في بُعْدٍ لا تعرفه، ولم تسمع عنه من قبل.

- لماذا؟

- أنتِ يا ميث مَنْ يجب أن يجيب على هذا السؤال، فأنتِ التي لم تُرِدْ أن تبقى، وليس مقدَّرًا لكِ الذهاب بعدُ.

- إذًا لماذا لا أعود؟

- هل حقًّا تريدين العودة؟

لم يكن سؤالًا بالنسبة له، ولكنه كان العقدة بالنسبة لميث.. هي لا تدري — لا تدري إن كانت تريد البقاء، أو الرحيل، أو حتى الجلوس عند جسدها.. ميث ظلت صامتة ترى جسدها يُحْمَل أمامها ليدخل سيارة الإسعاف بهدوء، ثم يُغْلق الباب بهدوءٍ أكبر.. رحلت السيارة، ولم يَبْقَ منها حتى أنينها، لم يَبْقَ إلَّا الدماء التي تأبى الأرض ابتلاعها لتكون شهادة ما بقيت على اليوم الذي سقطت فيه ميث هنا.

- ماذا الآن؟..

- هل هذا سؤال؟

- لا أدري.

- سآخذك يا ميث في رحلة بين البقاع المعمورة، اختاري أنتِ أين ننزل، ثم حين تحين ساعة الصفر سيتوجَّب عليكِ اتّخاذ القرار.

- لماذا تفعل هذا؟

- لنقل إنني أحتاج صديقًا.

- لماذا أنا؟

- كنتِ في الطريق.

- هل لي الامان؟

- نعم.

أمسكت يده، وراحت تتّجه للأعلى هَوْنًا، فهونًا، لم تشعر بالبرد رغم انخفاض درجة الحرارة.. كأنها فقدت كلّ الأحاسيس البشرية المتعلقة بالجسد. بين السحاب أخذها بالرحلة راح يشعرها لتبدأ الرحلة التي لا وصف لها.. "بعد".

الترتيلة الأولى

جاء وقت الغروب من أول يوم، فاستأذنها أن يقفا قليلًا؛ لأن نشاطًا على وشك الحدوث بين الأرض والسماء، فوقفت دون أن تسأل ظنًّا منها أنها سترى، ولكن مع مرور الوقت، وبعد كلّ الخشوع الذي أبداه لم تَرَ هي أيَّ شيء.. أرادت أن تسأل، فأومأ إليها بأن تسكت، هنا غلبتها عيناها، ونامت قرابة الساعة. حين أفاقت سألها إن كانت تشعر بتحسن، فلم تجبه..

"أنت يا ميث خارج جسدك إذا أنت لستِ بمادة، هكذا تستطيعين أن تنامي في أي مكان وزمان الوقت الذي تحتاجه روحكِ لتشحن مجدّدًا، ثم مع وقت ستقلّ حاجتكِ للنوم مع تخلص روحكِ من العادات البشرية؛ لذا إن أردت العودة، فالساعة يجب أن تدق في الوقت المناسب، وإلّا سيتوقف النبض في ذاك الجسد، وستجدين نفسك أمام الباب مجدّدًا، أما الوقوف، فعادة هذا الوقت عند تقلب الليل والنهار تتقلب أعمال الجن، وبعض الملائكة، وقفت كي لا أربك أيًّا بسببك، فوجودك شاذٌّ هنا، ولماذا لا ترين؟ ببساطة لأن هذا ليس عالمك، وكلما بدأت روحك بالتخلص من العادات البشرية، ستبدئين برؤية الحقائق التي لا تستطيعين رؤيتها الآن".

تأمل في كلامه ميث كثيرًا.. عقدت حاجبيها، وسألت "هل سأستطيع رؤية الله؟".. تعجب منها، وكأن الآية قُلِبَتْ، أو كأنه يُجَرُّ ليقف في حضرة إبليس..

- ألا تؤمنين بالله؟!

– بلا، أؤمن بأن للبَرِيّة خالقًا، أؤمن بصانع الأقدار، ولكنني لا أؤمن بالأديان؛ لأني حين مررت عليها رأيت أنها لا تؤدّي إلى الرَّبِّ الذي أؤمن به أنا!

ضحك هو كأنه لمس في كلامها منطقًا لم يلمسه في بشر قطّ، وكأن هذه الرحلة سجل تحت عنوان "البعث إلى الدين الحق". استشاطت ميث غضبًا؛ لأنها كانت ترى أن ما مرت به كان كافيًا ليوم واحد، والضحك لا يهوِّن عليها، بل يزيدها ألمًا..

– لا أرى أن كلامي مضحك، ولا أظنُّ أن يومي يتحمّل سخرية أحد إنسًا كان أم جِنًّا..

– لم أكن أضحك سخرية منكِ، بل تقديرًا لكِ.

– لم أسمع قبل بأن من علامة التقدير الضحك.. مهلًا قبل أن نسترسل أكثر.. هل لك اسم؟

– ودن.

الاسم رنّ في وجدان ميث، وكأنه قَرْعُ جرس من الماضي البعيد، كأنها سمعت الاسم من قبل، ولكنها لم تسأل. قالت في نفسها لربّما لاحقًا..

حسنًا يا ودن، إلى أين الآن، وقد أظلمت الدنيا؟!

– هل تريدين النوم؟

– لا.

– إذًا اختاري بقعة لننزل إليها.. هل تريدين أن نذهب إلى حيث جسدكِ؟

– لا.

- إذًا...
- هل بإمكاننا أن نذهب إلى الفضاء؟
- نحن في الفضاء.
- أعني إلى خارج نطاق الأرض.
- قال الله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) سورة الرحمن - الآية ٣٣
- هذا من القرآن؟..
- بلى.
- ماذا تقصد؟
- الآية تشرح نفسها يا ميث..
- نذهب إلى حيٍّ بسيط في ريفٍ بعيدٍ، حيث الجو المعتدل.
- ماذا تريدين أن تَرَيْ؟
- البساطة والخرافة.
- هل ستتحملينَ؟
- نعم.
- إذًا هيّا..

إنها قرية ريفية تبعد ثلاث ساعات بالقطار عن المدينة، ليس أي قطار، إنما قطار شحن بمقطورة واحدة للمسافرين. للقرية عيادة بطبيب واحد دون ممرضة؛ لأن أهلها لا يؤمنون بالطبّ إلّا إذا عجزت موروثاتهم عن شفاء مرضاهم. وقريب من تلك العيادة توجد عرفة بالية بها سجنٌ مِلْكٌ للدولة يجلس على باب الغرفة رجل

عجوز هو من رجالاتها يقال إنه لم يدخل الغرفة منذ شهور عِدّة، أو ربّما سنين؛ لأنه أضاع المفتاح! فلم يبذل أيَّ مجهود ليبحث عنه، أو يفتح الباب بطريقة أخرى مجدّدًا؛ لأنَّ أهل القرية لا يعترفون به، أو بسلطته.

على الجانب الآخر من القرية توجد مزرعة مثمرة، عمالها يعملون بجِدّ دون أن ينتظروا من ربّها أجرًا، مخلصين واثقين من أنها تراهم؛ لذا لا تكاد تمر ذبابة إلّا والكلُّ لها بالمرصاد. أما على بُعْد متر داخل الفيلّا الوحيدة في القرية تسكن هي أربابهم، وسيدة الزمان على حدّ وصفهم "عواطف"، هي لم تكن تدعو نفسها بأيٍّ من الألقاب التي يدعونها بها، ولكنها لم تكن تشكل عليهم، أو تمنعهم. وهناك في محطة قطار القرية هبطت ميث يسبقها ودن..

راح دون أن يشرح لها القرية، وكيف أن الهاتف الوحيد موجود في محطة القطار والتلفاز الوحيد موجود في ذلك المقهى الذي أيضًا هو وحيد، وأن الكهرباء بالكاد تصل للقرية ساعات معدودات في اليوم، ثم إن أهلها لا يبالون، فهم مؤمنون بفكرة أن ما يصنعه البشر يثير غضب الرَّبِّ في السماء، وأن المسجد شفاءٌ لكلّ داء — في المسجد، وأيضًا في تلك الفيلّا التي لا يدخلها عليلٌ إلَّا ويخرج منها معفيٌّ مجنَّد لخدمة الرَّبِّ يعدُّه أهلُهُ لتعاليم تلقاها في رحلة العلاج التي عاشها داخل غرفة مظلمة في تلك الفيلَّا لا يعلم مصدرها أحد، ولا يجرؤُ أحدٌ على التساؤل، أو الشك فيها؛ لأنها من الرب.

بعد ساعات من الشرح استوقفت ميث ودن لتسأله:

– وما الربط بين المسجد والفيلَّا يا ودن؟

– في هذه القرية يا ميث محرّمٌ هو التفكير في هذا السؤال؛ لأن الربط هو الرب.

– ولكن هذا ينافي المنطق، والدين الذي يتبعونه.

– لقد صاغوا الدين على أهوائهم يا ميث، هذه هي الإجابة البسيطة الوافية.

– هلمّ بنا إلى الفيلَّا.

– لا أظنّ أن دخولها اليوم سهلٌ.. لننتظر للفجر، وندخلها مع إشراقة يوم الجمعة.

– وما المميَّز في يوم الجمعة.

– يومٌ هادئٌ لكلِّ المخلوقات.

– إذًا دعنا نسافر لقرية أخرى لا مكان لرائحة الشعوذة فيها.

– لا تنطقي هذه الكلمة هنا..

لم يُنْهِ ودن جملته الذي قالها بعصبية إلَّا، وأصوات خيول لا تُرى بسبب التربة التي ثارت غبارًا في وجهيهما تقترب أكثر، فأكثر، هناك في لحظات أخذ ودن ميث في جوفه، وانتفض بها طائرًا إلى السماء..

بعد أن هدأ ودن، وانزاحت الصدمة من وجه ميث سألته: "لماذا؟"، فلم يُجِبْ، ثم سألته مجدّدًا، فلم يجب، انتفضت في الثالثة، فقال بهدوء: "ما هي الرحلة التي تَصْبين إليها؟! هذه هي الحياة الحقيقية، وليست رواية رعب، أو تشويق"، فلم تستطع ميث إجابته، وراحت تحلّق بغير فكر، أو خاطرة تجوب في جوفها.. أحست بالفراغ ثم الخوف، ثم الفضول، لتعود... وبعدها سكنت، هي لم تكن تكلم

نفسها، بل كانت تعيش مجموعة مشاعر دون أن تعي السبب لسكوت روحها، ثم سمعت بكاء طفل لم تعي مصدره، ولكنه كان يهزُّ السماء.. التفتت إلى ودن:

- خذني إلى حيث هو.

- لماذا تصرِّين على إلى الذهاب إلى حيث هو المآسي؟!

- أريد أن أراه.

- هو مجرد طفل يبكي.

- الأطفال يبكون في كلّ ثانية، ولكن ليس كلّ طفل يصل صوته إلى السماء.

- ستكتب المأساة غدًا هناك يا ميث.

- إذًا لنشهدها، ونشهد الحياة الحقيقية.

ودون أن يجيبها نزل بها إلى ذلك المنزل.. كان منزلًا فخمًا يسكنه رجل أعمال، زوجته الأرستقراطية وأبناؤهم الثلاثة، فتاة في سِنّ المراهقة، عند نزول ميث كانت أمام المرآة تضع مساحيق التجميل، ومن الواضح أنها كانت تستعد لسهرة ما.. على بُعْدِ غرفتين كان هناك صبيٌّ يضع على رأسه سماعات ضخمة يسمع صوت الطبول ولا شيء آخر، أما هو فلا يستطيع أن يسمع، أو حتى يرى شيئًا غير الشاشة الضخمة التي يواجهها. هو لم يكن مهمًّا بالنسبة لميث؛ لأنها كانت تبحث عن الطفل الذي لا يزال يبكي، ولكن دون جدوى مبدئية في ذلك المنزل الفخم، هي تسرع والصوت لا يقترب، وبين هذا وذاك سمعت صوت شجار بين رجل وامرأة، دخلت عُنْوة.. دخلت على مشهد كفٍّه يُسْقِطُها أرضًا، دخلت على جملة ارضِيْ بالقصر

وكل المجوهرات، ولا تتدخلي في حياتي الخاصة، أو من يسكن معي الفراش! هي نزوة عابرة أو حب، دعي المال يغنيكِ عن السؤال.. جملة لا يجب أن تقال لأية امرأة على هذه المعمورة؛ لأن المال لا يغني عن الكبرياء، ولا عن الوفاء كما كانت تعتقد ميث، صحيح أن المنظر استوقفها، ولكن بكاء الطفل كان هاجسها الأكبر لنزولها؛ لذا أدارت ظهرها، وراحت تبحث عن الطفل لتكون المفاجأة لها بأن الطفل موجود في الغرفة نفسها التي حصل فيها المشهد الدرامي بين الزوجين، ولم يكن لأحدهما أن يشغل نفسه بالطفل؛ لأنهما بطريقة ما ظنَّا بأن الشجار كان أهم. اتجهت نحو الطفل تحاول إسكاته، ولكن دون جدوى؛ لأنه لا يراها. خرج الرجل من الغرفة وبقيت المرأة، حملت سماعة الهاتف.. أجرت اتصالًا هاتفيًّا سريعًا "أعتذر منكِ زوجي كان هنا، وتعرفين كيف أنه لا يحبّ أن أنشغل عنه بأيّ شيء، لنلتقي في النادي بعد ساعة، ثم نذهب للتبضّع"..

أية أم هذه التي تسمع طفلها يبكي، فلا تلتفت؟! أية أم هذه التي تُهْرَعُ للهاتف قبل أن تلتفت حتى لقطعة خرجت من أحشائها؟!

رأس ميث على مؤخّرِ سرير الطفل لا تريد أن ترى شيئًا إلّا حين ينتهي صوت البكاء، ميث كانت تتذكر بكاءً آخرَ كانت تودُّ أن تسمعه تتذكر حين استيقظت فزعة من نومها، وكل ذلك الألم..

توقفت الذاكرة هنا؛ لأن الطفل قد هدأ.

ها هي الأم أخيرًا تضع "لَهَّاية" في فم طفلها لتنادي الخادمة لتحمله، وبينما الخادمة تهمّ بالطفل خارجة، ذكّرتْ سيدتها بأن غدًا هو يوم عطلتها، فإذا بالسيدة تحسُّ بوخزة في قلبها.. حاولت

تجاهلها بحمل حقيبة يدها إلى خارج المنزل حيث السائق والسيارة الفارهة.

ما هذا المنزل التي يضمُّ الكثير من الصور العائلية الرائعة، وورق الجدران الفاخر ولا يضمُّ أرواحًا في ثناياه؟!

اقتربت ميث من إحدى الصور المعلّقة حملت الصورة، وفي برهة أحست نفسها فيها: المكان والزمان، الرائحة والأضواء، والعائلة المبتسمة- أو هكذا ظنّت أنهم يبتسمون فقط للكاميرا- ثم تفرَّقوا، وفي الثانية نفسها عادت ميث تحمل إطار الصورة..

"ودن أين أنت؟".. "ودن أخرجني من هنا".. "أيّها الجِنِّيُّ اللعين أين أنت؟!"، ثم لا إجابة.. أنه الألم نفسه مجدّدًا تشعر به.. إنه الألم الذي تذكرته حين بكى الطفل كأن المكان يحاول أن يتغيّر، وكأن أحد الجدران بات مألوفًا لها.. وكأن الأرض بدأت تتلون من تحتها باللون الأحمر النقي..

الدنيا تدور بها.. ستقع مرة أخرى، ولن تجد من يرفعها — يحقُّ الذكر هنا إنها الشيء الوحيد الذي يشعر بها هو جسدها الذي هو ممدَّد في النصف الآخر من الأرض، يؤازرها.. يناديها، فيرفع من حِدَّة نبضات قلبها علّها تسمعه، فتعود إليه كما سمعت، ولبَّتْ بكاء الطفل من السماء. بدا كأنها ترى جسدها من بعيد، ولكن الطريق مخيفٌ، والخوف يقتل الإنسان أكثر من أيِّ شيءٍ آخرَ، فكان على ودن إعادة التركيز لكيانها الذي هزَّه هو.. لربّما.

- ألا تسمعين صوت الصلاة يا ميث؟..

- ها!! أين كنت؟! أية صلاة؟

- هيَّا..

بابتسامة أخذها ودن إلى غرفة الصلاة التي هي موجودة في الطابق الأرضي خلف المجلس الكبير، وإذ بها المرأة التي ظنَّت ميث أنها خرجت، ولكنها كانت هناك أسفل الدرج المُذَهَّب الرُّخَامِيّ، كانت ترتّل، ورائحة البخور تتراقص على أنغام صلواتها. حين تقترب من المشهد ترى رأسها المطأطأ، والدموع تنهمل خشوعًا ولربّما حزنًا — لا أحد يدري، هي كان تردِّد آية واحدة: "أيّها النّساء اخْضعْن لرجالكنّ كما للرّبّ؛ لأنّ الرّجل هو رأْس الْمرْأة كما أنّ الْمسيح أيْضًا رأْس الْكنيسة، وهو مخلّص الْجسد." . كانت لا تزيد على الآية حرفًا، بل وكأنها آلة تسجيل تعيد الآية نفسها، بالخضوع نفسه، والألم نفسه.. إلى أن رنّ هاتفها يذكرها بأنها كانت يجب أن تكون على الطريق في تلك اللحظة، انسحبت بهدوء تشكر الرب على النعمة.. على هذا المنظر جلست ميث على ذلك المقعد الخشبي الذي كأنه نُقِلَ من العطور الوسطى عَبْرَ آلة الزمن دون أن يصيبه خدشٌ، ومقابل المذبح سألت ودن بتعجبٍ هادئ.

- أَمِنَ الكتاب المقدس؟

- إنه قول للرسول بولس، من رسائله إلى أهل أفسس.

- أعجب.. ألرّبّ تخضع، أم للمال؟! أم للأمرين؟! ولماذا يأمر الرب أبناءه أن يخضعوا، ويغضّ الطرف عن الألم الذي يعيشونه؟! لماذا يأمر الزوجة أن تطيع زوجها، وتنسى أبناءها..

- "أيّها الآباء، لا تغيظوا أوْلادكمْ لئلاّ يفْشلوا"، جاء هذا النص في رسائل الرسول بولس إلى أهل كولوسي.. الرسول نفسه

في آية أخرى، يا ميث انتبهي، فالآن فعلتِ كما يفعلون.. كل الآيات موجودة، ولكنكم -معشر البشر- تختارون أن تَرَوْا آية دون أخرى، وقطعة دون الصورة كاملة، ثم أيضًا تختارون أن تلقوا الخطأ إمَّا على الرب، أو إبليس، والأمر في الحقيقة ليس إلَّا أهواؤكم، ليس للكتاب، أو الأرواح الشريرة دخلٌ فيها.

- قلت قبل أن ننزل إن مصيبة ما سوف تنزل غدًا، وأنا لا أرى أية دلالة، الحياة مستقرة هنا..

- هذه مشكلة بشرية أخرى يا ميث، تقلب الدنيا، ثم ينتشر البشر، وحين يعودون يتصرفون كأن شيئًا لم يكن.

- ولكن أليس هذا للأفضل؟

- إن كانت لكم ذاكرة كالأسماك نعم هذا للأفضل، ولكن ذاكرة الإنسان لا تشيخ إلَّا بقلة الاستخدام، أو التناسي.؛ لذا فمصائبكم تتراكب إلى أن تصل إلى الطاقة الاستيعابية، فيفقد المرء حواسّه، ويغيب عن وعيه، وحين يرتكب الحماقات لا لائم ولا مُلام إلّا نفسه.

- إذًا ماذا تقول؟

- أنا لا أقول، ولا أرى، ولا أتدخل في عالم هو لا يفهم نفسه!

- سأنتظر لرأى هذا البلاء.

- لا لائم، ولا ملام يا ميث!

- البيت خالٍ، وليس الانتظار من هواياتي.. هل لي بسؤال؟

- ليس كل الجن يقرأ المستقبل، أو يعلمه. لكن الغالب يقرأ الأحداث، فيرى المستقبل بوضوح.

-كيف عرفت سؤالي؟!

- لأني سمعت خاطركِ.

- ليس عدلًا! وكيف تقرأ الأحداث؟

- الماضي، الحاضر، ثم المستقبل عبارة عن حدث، ونتيجة، وكل ما تخطُّه اليوم هو واقع تعيشه غدًا حتى ولو بأفكارك، وأمنياتك كلها طاقات تتفاعل.

- إذًا، نحن طاقة؟

- بل ألوان مختلفة من الطاقة، وليس لكل شخص لون واحد، بل ألوان مختلفة، أي لا يوجد شخص سيِّئ للغاية، ولا شخص جيد للغاية، إلّا من عصم ربي.

- ربك؟ وهل أنت مُوَحِّد؟

- تقفزين كثيرًا بين المواضيع يا ميث.

- أتعرف الموضوع الأهم يا ودن.. لماذا حقًّا أنا هنا، وأنت هنا معي؟!

هو لم يجبها، وهي لم تكن مستعدة لتسمع الإجابة، ولا شيء مستعد إلا الشمس فقد استعدت للرحيل، ثم رحلت ليحلَّ الليلُ الذي لم يكن هادئًا تمامًا في ذلك المنزل، فالطفل يبكي بكاء المريض والأم تنتظر عودة زوجها لتصالحه بهدية اشترتها، أما الأبناء، فلا يُسمح لهم بأن يقتربوا من جناح الكبار بعد الساعة الثامنة..

إن غابت الأم، فالأخت لها حنان عظيم، وفي قلبها نزعت الأم على إخوتها وهي أيضا كاللبوة إذا أصابهم مكروه. ومراهقة ذلك المنزل كانت كذلك، ولكن القوانين كان ضدها، فالبكاء ارتفع مجدَّدًا

عند العاشرة حين كانت الأم في مخدع زوجها في الغرفة المجاورة، وحين قام ليغتسل قال لها بقلب تجرّد من أيّة أبُوَّة: "أطفالك كالحشرة الطنَّانة سأذهب للتدخين في الحديقة، عالجي أنتِ الموضوع المزعج هذا". وما إن خرج قامت للصراخ عليه إلَّا أن صوتًا جاءها من خلف الباب: "اتركي الصغير لي إن كان غلطة فراش، أو اعرضيه للتَّبَنِّي، فهناك من يتمنَّى ظفر طفل.. ثم إنه طفل لن يسكت إذا صرختِ عليه، ولن يحسِّنَ الأمرَ أيُّ شيء إذا وضعت الدواء له في زجاجة الحليب.. كم أتمنَّى أن يسخط الرَّبُّ عليكِ.. فالموت لم يكن عادلًا حين أخذ أمي ولا القدر حين زوجك أبي، ورزقكِ هذا الطفل أيتها اللعينة" سكت الطفلة والرضيع أيضًا بدون أن تسمع جوابًا من المرأة، ولكن المهمّ الطفل هدأ ربما؛ لأن الدواء الذي في الحليب يفسر ذلك، عادت الطفلة مقطعة القلب إلى الغرفة تنظر إلى أخيها الذي ينتظرها على بابها يبكي ذكرى أمه، فطارت إليه تضمّه كأنها تعتذر عن إسقاط اسم أمها في صراخها على زوجة أبيها.. حين كانت دموع أخيها على صدرها، ودموعها على كتفه قالت بصوت قلبها: "إن كان الرَّبُّ موجودًا، فلا بُدَّ عليه أن يأخذ الحقوق".

وهكذا نام الجميع إلَّا عَيْنَيْ ميث الذي أحسست بأنَّ الحق سيظهر إذا ظهرت الشمس، فهي تعرف، وتؤمن بأنَّ الرب موجود، ودعاء الطفل خصوصًا إن كان مظلومًا لا يلبث إلَّا أن يكون حقيقة، وهكذا تحقَّق السبب.. المشاكل تؤدّي للدعاء.. والدعاء بحُرْقة مستجاب، هذا سبب، ولكن ما هي النتيجة؟!.. فكرت وقلبها يهمس بإجابة لا يستوعبها عقلها: "الطفل يا ميث.. النتيجة في الطفل".

لـم يكـن الفجـر بعيـدًا ولكـن الخـوف لقلبهـا أقـرب، الخـوف يجعلنـا نسـترجع كلَّ الذكريـات المقرونـة بالحـدث لنخـاف أكثـر — هـو بـكلِّ تأكيد عدونا الأكبر في الكثير من الظروف! ذكريات ميث كانت موجعةً أكثر من خوفها من أحداث النهار القادم، صوت بكاء الطفل الذي تمنَّتْه والدماء التي غطَّتِ الأرض، ثم السقوط الذي لم يرفعها منه أحد، ومجدَّدًا ها هي لا يناديها إلَّا جسدها، ولا تسمع إلَّا دقّات قلبها المتسارعة.. مجدَّدًا كان على ودن التدخل كأن واجبه الحفاظ عليها في الحالة التي هي عليها لا عودة، ولا موت.. لا عودة، ولا موت..

كان حضن ودن لها حضن آدمي، شعرت بدفئه، والأعجب هو أنه بدا مألوفًا لديها كأن خصلات شعرها البُنِّيَّة سكنته من قبل.. لم تسأل لأنها لم تشأ.. لم تشأ إلَّا أن ينتشل حضنه ألمها الذي لا تبخِّره السنون، ولا يأخذه منها أيُّ شيء..

– لربما يا ميثُ إن تحدثتِ أكثر عمّا يزعجكِ لكان الأمرُ أهونَ.

– بل سيؤلم.

– في المرة الأولى والثانية، وربما في العاشرة أيضًا، ولكن سيتلاشى؛ لأن الكلام الذي يخرج من اللسان، ويخرج معه الألم على دفعات.

– لا أريده أن يخرج.. أريد ألمي.. أريد الرائحة الأخيرة له، وإن كانت الرائحة رائحة ألم.

لماذا لم يكن ودن يعلق على أكثر الأمور حساسية بالنسبة لميث، هل يخبئ لها شيئًا أكبر، هل وجودُهُ جزءٌ من قصة أكبر؟.. هل

يتلاعب بها، ويحتجز روحها رهينة لأمر ما؟!

ها هو الصبح جاء والكل أفاق، إنه يوم موعد النزهة العائلية، وسيخرج الجميع من المنزل لا عجب فالخدم في إجازة! لحظة لربّما ليس الجميع؛ لأن الأم لا تزال على الفراش.. أما الباقون، فهم على مائدة الإفطار لا يتناول أيٌّ منهم أيَّ طعام.. القهوة في يد الأب تكاد تبرد، وهو لا يشعر بها، والأبناء يمسحون دموعهم قبل أن تسقط بهدوء..هل يا ترى تأخرت ميثُ، وحلَّ البلاء قبل أن تشهده؟..

- ودن ما الذي يجري، هل مات أحد؟!

- لا.

- انظر إليهم، لا. انظر إلى الأب، فهو يكفي.. إنه حزين يرتدي اللون الأسود، ولا يشعر بالقهوة الباردة، والسيجارة التي تحترق بين يده دون أن يدخنها!

- إنهم جميعًا على هذه المائدة حزينون.

- أظن أنني أستطيع أن أرى هذا! السؤال هو لماذا؟

- الذكرى السنوية لرحيل زوجته، محبوبته وأم أولاده.

- إذًا هذا الرجل البغيض يعرف كيف يحب.

- بل لا يعرف كيف يحب غيرها.

- هل تعرف كيف ماتت؟

- سقطت في يوم النزهة العائلة، وارتطم رأسها بحجر.

- بهذه البساطة؟!

- نعم وأوصت أختها بزوجها، وأبنائها.

- أين هي أختها إذًا؟

- إنها في الأعلى لا تستطيع مواجهة هذا اليوم.

- ماذا؟! تلك المرأة أُختها .. لهذا إذا تزوجها، ولكنها ليس أختًا أعني أنها لم تكن تتصرف كأم أقصد كأخت..

- أحبته قبل أختها ماذا تتوقعين؟

- أنا لا أفهم أيَّ شيء!

- إنها مشاعركم الغريبة يا ميثُ.

عاد الهدوء لدقائق حتى حرَّك الأب المقعد معلنًا استعداده للخروج للنزهة، أو بعبارة أصحّ لتقديس اليوم الذي رحلت فيه الأم والزوجة. خرج مع أبنائه، وتلك المرأة تراقبهم من خلف ستائر الشباك.. شيءٌ في داخلها يريدها أن تذهب، أن تزور مطعم أختها المفضل، ثم قبرها، أن تعتذر منها؛ لأنها أرادت كل شيء لها، ولذكرى الميت أن تتبخر. هي تشتاق لها، ولكنها تشتاق أن تعيش حياة مستقلة من الرجل الذي تحب دون ذكرى الميتين.. هي كانت لتفكر إلى العصر لو لم يبدأ الطفل بالصراخ، وهناك كانت استجابة ميث أسرع من استجابة أمه، وصلت ميث إلى طرف سريره تبكي دوم أي سبب تعلمه، والأم لا تزال تنظر إليه بحنق "لماذا لا يحبك كما يحبهم، أتيت بك كي يحبك، ويحبني من خلالك. لكنك فشلت! أنت تفشل في كل شيء إلَا البكاء"!

أخذت نفسًا عميقًا، ثم اتجهت إليه، مدَّت ذراعها، والتقطته كأنها تلتقط قمامةً من بعيد. وعلى بُعْدِ ذراع راحت ترجُّه بقوة مجنونة "لو أنك تموت اليوم، فتحل ذكراك بدل ذكراها عندها سيكون منك

فائدة، لو أنك لا تبكي في كل مرة يعمل فيها، أو يريد قربي، أو أنك كنت تشبهه كما يشبه ذلك الفأر الصغير" .. رجته ورجته، ثم رجته إلى أن ألقته إلى أحضان سريره مجدَّدًا، وهو لا يزال يبكي.. لم يتغير فيه أي شيء إلَّا أنه بدأ يلوح لميث بيده الملائكية التي شقها من خلف القماط علَّه تصل أحضان ميث، أما ميث، فلم تفكر كيف رآها، ولماذا، بل كيف تحمله.. حاولت جاهدة أن تحمله، ولكنها ليست مادة هي بلا جسد، مرَّرَتْ يدها مرارًا، وتكرارًا من خلالها أنه ينظر إليها، وهي تنظر إليه يبكي، وهي تنوح إلى أن خمد صوته إلى الأبد.. سكتت ميث ظنًّا منها أنه تحسَّن، ولكن مجدَّدًا نظرت إليه إلى زُرْقة عينيه.. نظرت إلى اللَّاحياة فيه، لم تستوعب في البداية .. صغيري، صغيري.. نادته لم يجب، قالت: "لا!! لا!! لا تمت أرجوك!! لاااا"، ولكن الموت لا يجيب.. رفعت رأسها تحمل في جوفها قلبًا محترقًا، وغضبًا يحرق من يشعر به، رمقت الأم التي لا تحمل من اللقب غير الصفة صرخت: "لا ذرية، ولا حرمًا دافئًا بعد هذا ستشهدين"، العجيب أن المرأة التفتت إليها كأنها سمعت، ولكنها لم ترها.. أحست بالخوف، فاقتربت من رضيعها، فرأته ينظر إلى السماء بلا نبض، أو حياة.. حملته كالأم إلى صدرها نزلت كأنها تنزل للصلاة عن المذبح، وهي تبكي بهدوء إلى أن استقرت "لا أنا آسفة، لا تمت لا.. أنا لا أقصد، جاءت وأخذتك مني أختي اللعينة! رأيتها في المنام تأخذك، وتمضي بعيدًا.. لماذا هي تأخذ كل شيء؟.. استيقظ أرجوك أنت من حشاي أنت الشيء الوحيد الذي أملك، وليس منها، أو من رائحتها" أبعدته عن حضنها تراه بحنان للمرة الأولى والأخيرة: "أنت صغيري أنا.. المنادي قال

لا ذريَّةَ لي بعدك أرجوك أَفِقْ"!..

على هذا المشهد أخذ ودن ميث بعيدًا، ومجدَّدًا إلى السماء دون أن تصدر أي صوت ودون همس.. تعلم أن المرأة لن تلام لقتلها الرضيع، وأن حياتها ستستمر، هي كانت تعلم، وتتألم.. أن لا جزاء لتلك القاتلة إلّا الضمير..

الألم أثقلها، والنوم غلبها، وصوت دون سحرها لتغمض عينيها "لا لائم، ولا مُلام إلَّا هي يا ميث"!

الترتيلة الثانية

أيام مرت من الصمت الذي تتخلَّله أسئلة لا إجابات شافية لها في أغلب الأحيان..

- ما هي السعادة يا ودن؟
- أن ينبض قلبك بسلام بعد أن يجد نوره.
- حبيبه أو دينه؟
- النور الذي لا ينبض.
- إذًا الدين.
- وهل الشخص الذي لا دين له تعيس؟
- ليس بالضرورة.

ابتسم ودن وانتهى الحديث.

- لماذا يعيش الإنسان في ضغوطات؟
- "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ".
- إذًا نحن خلقنا لنشقى؟
- بل لتتطوَّروا وتُصقلوا.
- كيف؟
- أن يستخدم عقله، به فقط يرتقي
- كيف يا ودن؟

ابتسم ودن، وانتهى الحديث.

- لماذا أنا هنا يا ودن؟
- هل تعلمين ما هي إحدى أهم المشاكل التي يواجهها بنو

جنسك .

- أخبرني.

- إنكم لا تسألون الأسئلة الصحيحة في أغلب الأحيان، إذا ضغطتم سألتم "لماذا" والأَوْلَى أن يكون السؤال "كيف"، وإذا شعرتم بالتعاسة سألتم عن معنى السعادة، وليس لها جواب واحد، فتتيهون، وتعدمون.

- نعدم؟

- ترفضون المبادئ والواقع.

- وأسمى عدمية؟

- نعم، كالمعري عند العرب، وإميل سيوران في الغرب.

- المعري الذي قال: "اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين، وآخر دين لا عقل له".

- وهل تتفقين معه؟

- وبقوة.

- العدمية بعيدة عن السعادة وقريبة جِدًّا من الضغوطات، وتتأرجح بين الدين واللَّا دين.

- كيف؟

- لنذهب ونَرَ.. لننزل إلى المدينة المزدحمة.

في تلك المدينة المزدحمة وسط البِنايات توجد بِناية صغيرة فقيرة الحال ذات الخمسة أدوار، وفي الدور الثالث في آخر الممرّ توجد شقة أمامها في منتصف السقف نور يصارع دائرته

الكهربائية؛ لكي ينير، يسكن خلف الباب صحفي هاجر من بلاده باحثًا عن مدخل يسدّ به جوعه يعمل في النهار على كتابة عامود الوفيات وفي الليل يسقي المخمورين، ثم يتأمل تخبطهم، ويشهد في ساعات فقدهم للوعي الحياة التي يعيشها هو في صَحْوِهِ. هنالك في تلك الشقة هبط دون بميث، تلك الشقة التي يمقته الكثيرون عليها؛ لكونها في الزاوية إذ لها شرفة من جهة، وشباك في الحائط على يمين الشرفة التي لا يلاحظها الزائر؛ لأن صاحبها حجبها بتلك الرفوف التي تحمل الكثير الكثير من الكتب. على الشرفة يوجد تلسكوب قديم يظن الناظر إليه أن لونه رصاصيّ إلَّا إن أمعن النظر سيرى الإهمال الذي جعل الغبار يسكنه ويكسوه، بجانبه كرسي فقد أحد أرجله يصارع هو الآخر للوقوف.. داخل الشقة لا توجد مرآة، ولا حتى سرير، بل كنبة واحدة أمامها طاولة مستطيلة فرش برماد السجائر، يتوسط الطاولة قطعة فاخرة من الرخام تملؤها الكثير من السجائر الرخيصة المحترقة. على الجانب الآخر من الشقة يسار الباب للداخل منه، طاولة عليها معدات طعام، وقدر صغير إضافة إلى مَوْقِد له عينٌ واحدة بغاز حجمه كعلبة المشروبات الغازية. "أين ثياب الرجل" سألت ميث، فأشار ودن إلى خزانة صغيرة يعلوها الكثير من الكتب.. لها درجان يسكنهما القليل من الملابس والحاجات الشخصية. كل شيء بائس إلَّا أن الأمر الغريب هو ذلك الكرسي المصنوع من القش، كان قد وضع في منتصف الغرفة — أي الشقة، تحت المروحة لا شيء في موضعه مفهوم إلَّا أنه تحت المروحة. علقت ميث على كلّ هذا المنظر جملة قالتها بطريقة استهزائية:

– هل العدمية أن تعدم نفسك من أقلِّ سُبُل الحياة رفاهيةً.

– بعضها.

– إذًا، زاهد هو؟

– بل كاره.

– أيكره وجوده؟

– هو كما يصف أميري نفسه يظن أنه "ضحية مذبوحة على الدوام".

– هل هذه صنيعة الكتب.. أظنها كذلك، انظر إلى كمية الكتب هذه..

– أليس عقلكم معشر البشر هو من يختار الكتاب؟ ويأمر اليد أن تحمله.. هل لو اقتنى رواية في الحب، هل سيكون هذا حاله؟ ثم إن العقل، وأفكاره نتاج ومحصلات أحداث عاشها يكون له منهج يصقله.

– تقول إن الكتاب نتيجة حالتك النفسية.

– أقول يا ميث إنكِ المحرِّك لاختيار الكتاب، والحالة النفسية.. العدميّ يؤمن بأن الحب حماقة، وإذا تأملنا نجد أن قائلها هو نتاج حبٍّ انتهى بمأساة، هو أيضًا يقول: إن النساء يتحملن ذنب التناسل، والتناسل منبوذ، وهنا ترى أن الذي يؤمن بهذا القول يكون قد خرج من أسرة كانت ربّتها امرأة، والأمر البَيِّن أنها أخطأت التربية.. كل هؤلاء يا ميث ومعتقداتهم نتيجة أن الواحد منهم جعل حركة الأشخاص الذين عاشرهم؛ وبسبب ذلك غضبت روحه، فقطعت صلتها بعقله إلى أن وصل حاله بأن ينبذ الزمن، والوجود،

ويشعر بأنه خلق من العدم، وإلى العدم..

- أيكفر بالرَّبِّ؟

- ليس بالضرورة، فأغلب العدميين مثقفون، وفلاسفة يوقنون بأنّ للكون خالقًا، وما كان أن يوجد من العدم، ولكنهم في أغلب الأحيان يجهلون علّة وجودهم.

- إذًا العدمية سواد يعيشه به صاحبه يظن أن الحياة لم توجد له، أو لغيره لمجرد أن كان لا يحرّك عقله، بل يجعل الآخرين يؤثرون عليه، ثم يعيش ضغوطاتهم، وعلاوة على ذلك أنه توقف عن البحث عن سبب وجوده، ففضَّل أن يهرب إلى العدم الذي صنعه لنفسه، فيتمنى الموت، ولكن لا يقوى عليه.

- أحسنتِ التفسير.

- ولكن أليس للدين رأي، حبل ينقذ به أهل ملته.

- كل الديانات أنزلت رحمة يا ميث، ولكن المشكلة في البشر الذي يقومون عليها جيلًا بعد جيل، يظنون الدين تعاليمَ للدعاء والصلاة. في حين أنه أسلوب حياة لا يجب أن يفرق بينه وبين الطب، والهندسة.

- لا أتفق، فالدين يجب ألَّا يطوِّقَ العلوم

- الدين والرب لا يطوقان، بل إن الدين يشدّ على العلوم الأخرى، ولو فهم الذين يدَّعون أنهم أهل الذكر هذا لتتطوّر البشر بشكل أسرع، وأكثر سلاسة.. مرّ على العالم زمن كان رجل الدين فيه عالمًا يلقَّب اليوم بأبي الجينات، ومرّ على عوالم أخرى زمن كان رجل الدين مهندسًا.. لا أقول إنّ الدين مقرون، بل أقول لو بسط أهل الدين

للناس حياتهم، وخاطبوا عقولهم، وقلوبهم على حدٍّ سواء لما تمكّن السواد من أي إنسان، فليس الدين عاطفة، ولا الدين تعاليم مجرّدة.

كانت ميث تستمع لودن بابتسامة هادئة؛ لأنها كانت أول مرة يسترسل ودن في شرح أمرٍ ما، تعرف أنها المقصودة من كل الكلام الذي يقول وتعلم أنها هي مَنْ عاشت وفارقة جسدها تبحث عن السعادة وروحها، فعاشت كلّ الضغوطات حتى ألقاها القدر عن طريق الحادث في يد ودن يطوف بها البلدان. وفهمت حينها أنه لا يهوى السكوت، ولكنه يتكلم فقط فيما يجعلها تتأمل في حياتها وأفكارها، فبعض العلم لا ينفع، وقد يهلك صاحبه كما قد يهلك صاحب تلك الشقة في يوم.

حين علم ودن بأن الرسالة قد وصلت أخبرها بأنه وقت الرحيل، فطلبت أن تلقي نظرة أخيرة على الكتب، وبينما هي تفعل سقطت من إحدى الكتب صورة لفتاة جميلة كُتب عليها "لترقدِ بسلام".

مجدَّدًا في السماء ولكن براحة نفسية تعيشها ميث لأول مرة منذ زمنٍ بعيد. رأت ميث أنها بدأت تفهم روحها والعالم الذي تسكنه، رأت معاناة الغني والفقير التي كانت هي واحدة منهم.. كل المعاناة التي عاشوها كانت مع أنفسهم لا مع سواها، عجزوا أن يلقوا اللوم في جهلهم على أنفسهم، فحملوا الجميع الخطأ عداهم. من المخزي أن يظن الإنسان أنه ضحية لسواه؛ لأنه ليس سواه الذي سيحاسب عليها..

ولكن شيئًا ما لا يزال يقلق ميث.. لماذا هي حقًّا هناك مع

ودن، ولماذا هو يفعل كلّ ما يفعله لها؟ من هو حقًّا..

الترتيلة الثالثة (الجزء الأول)

لميث طِبَاعٌ غريبة لم تكن تخفى على ودن، كانت كثيرة الفكر سأل دائماً عن كلِّ شيءٍ، وتختلق أفكارًا في بالها، وترسم أحداثًا، ثم تتبعثر ذاتها فيها لا تجد طريقًا للخروج، ولعلّ أحد أهم الأمور التي كانت قد بعثرتها، وغيَّرت خريطة حياتها هي الحب، فهي لم تُشْفَ منه يومًا، بل كانت تتعثر كلّ مرة تحاول فتح صفحة جديدة □ ودن يعرف أن علة الاختيار فيمن يختار، وأن القدر يسخر كيفما ظننَّا، وكيفما سيَّرتْه بناتُ بناتِ أفكارنا..

– جميلة هي الحرية، والسماء..

– وأنتِ بالمقياس البشري جميلةٌ أيضًا.

– هل لكم مقياس آخر.

– لكلِّ خلقٍ مقياس..

نظر ودن إليها بتحدٍّ، ثم أردف.

– يجب ألَّا تقيسي كلّ الخلق بناءً على أفكارك وكيف أدرتِ، وإن فعلتِ ستكونين حينها حكمتِ على نفسك العيش في صندوق لن تتطوَّري فيه أبدًا.

– سأبقى في السماء، وسأرى الخلق، وأتعلم كلّ القياسات.

– لا أحد يتعلم شيئًا دون حب، هل ستحبين كلّ الذي سترين؟

– لا! أنا فاشلة في الحب، ولكنني جيّدة في التعلُّم.

– هما لا يُجْتَزَآنِ يا ميث.

سكت ميث؛ لأنها ما أحبَّت شيئًا، أو أحدًا. إلّا خدشها

على أقل تقدير، ثم إن كل هذه الخدوش، والجروح حملتها في جوفها بصمت لا تعلم كيف تداويها حتى أصبحت تتسلق بفضل قوة تحملها وكتمها، لكنها كانت لا تهتم إذا جرح من حولها ولا ترى لأحد فضلاً عليها، وفقدت في طريقها إيمانها بأنَّ هناك مَنْ قد يرعاها فوق الخلق كان، أو أحدهم..

ظنت ميث أنَّ هذه المحادثة هي إبان نزولها إلى بيتٍ، أو قرية لتتعرف فيها إلى خلقٍ جديد إلَّا أنَّ هذا الأمر لم يحصل لا حينها، ولا بعد ساعة، أو حتى يوم. بل بالعكس كان المكان هادئًا كأن لا أحد يسكنه، فقط هي والغيوم، وبعض من دردشات ودن الذي كان بدوره يطيل الاختفاء ممَّا خُيِّلَ لها أنه بدأ يملّ منها.. ميث بدأت ترسم الأحداث التي يمكن أن تحصل لها مع ودن وبدونه؛ تخيّلت أنها ستتوه باحثةً عنه، تخيّلت أنها ستتحوّل إلى كائن شرير يستحوذ على أجساد الناس، ويسخرها لخدمته، تخيَّلت أنها تحاول العودة إلى جسدها، ثمّ لا يقبلها، تخيّلت أنها تعود إلى كلّ شخص آذى قلبها لتخرب حياته، وتخيفه، وترعبه، وتمزقه، فهي غير مرئيّة له تكتب على جدرانه خطاياه، وتسرق أشياءه الثمينة، وتزور أحلامه في كلّ ليلة. تخيّلت أن تسافر إلى الفضاء المحجوب لتحترق في محاولتها للخروج، كما أنها تخيّلت أنها أمام ودن ملتهبة قرونه، وعيونه تشبه ورق الأشجار إلَّا أن لونها متوهج لا تدري أَلِزُّرْقة، أم هي محمرة، وهو يستلّ خنجرًا من فولاذ منقوش يغرسه في روحها، فتتمزَّق إلى أشلاء بكلِّ هدوء لا تدري إلى ما تتحوّل إليه..

ميث بهذه التخيُّلات كانت تأكل من طاقتها تضعف روحها

وتهزُّها، لم تكن تعلم أنّ للروح غذاءً، وأنَّ كلّ تلك الطاقة السلبية كانت تضعف رؤيتها للأشياء من حولها وقدرتها على التحرك، فهي لم تكن في مكانٍ هادئٍ، وليست الغيوم فقط حولها ولكنها لم تكن ترى.. اقترب منها ودن، وهي على تلك الحالة ضعيفة تكاد أن تكون بالية، راحة الخوف منها تستدعي قَرْنَيْهِ، وجانبه الوحشي.. هل يا ترى سيتحقق تخيُّلها الأخير؟..

مجدَّدًا اختفى ودن من أمامها..

فتحت ميث عينيها على شعور الهبوط الحاد، أو السقوط الحرّ، وكأنها ربَّما سترتطم بالأرض بقوة، أو ربّما لا.. أين ودن، وكيف تحرّكتْ هي..

أخيرًا فتحت عينيها، ترى حولها كتبًا كثيرًا، ولكن الصورة ضبابية ثقيلة عليها، كأن عقلها لا يستطيع أن يترجم الصور التي ترسلها العين له. كادت أن تغمض عينيها وتستسلم.. إلَّا أن رؤيتها لنفس الباب الذي رأته يوم الحادث أفزعتها، قاومت ذاتها، أو بالأصح أفكارها لتعود للواقع، فرأت نفسها أمام مفترق طرق جسدها هناك ينتظرها لتذوب الألوان فيه مشتاق لها، وعلى الزاوية الأخرى هناك ودن يلعب مع صورتها وهي طفلة! لم يكن مشهدًا جديدًا، بل كان موقفًا قد حدث فعلًا.. لهذا لم تكن رائحته غريبة عليها ولهذا هو معها ولكن من هو؟ لا مزيد من التكهنات قالت في نفسها يجب أن تعرف أخيرًا من هو ودن، ولماذا هي في هذه الرحلة..

استيقظت أخيرًا والرؤيا واضحة حولها.. إنها مكتبة، وبها الكثير من الكتب القديمة والحديثة، رفوف يصل طولها لمترين هنا،

وستة أمتار في الزوايا هناك وبينها طاولات للدراسة يتوسط كلَّ طاولة ضوءٌ خافتٌ. بعيدًا في الجهة اليمنى توجد نافذة زجاجية على امتداد الجدار، تدخل أشعة الشمس من خلالها بكلِّ تواضع إذ احتجبت عن كلِّ تلك الكتب هي الأخرى خلف الغيوم. نفرٌ قليل يجوب المكان يتّجه جميعهم إلى كتب معينة لا يحولون بالنظر عنها إلَّا تلك الفتاة.. تقرأ العناوين على كل الرفوف بابتسامة صامته كأنها تلقي تحية عليها، تحمل الكتب إلى الرفوف بعد أن تركها مَنْ فرغ منها على الطاولات، تتأمل صفحات الكتب المرتجعة تقرأ بين طياتها قصصَ مَنْ كان يقرؤها، أو علّها تثري نفسها بكلمة من هنا، أو هناك. جلست ميث بين الرفوف تتأمل كلّ ما كان إلى أن بدأت تبكي، كانت وحدها بلا ودن، أو من يستطيع أن يواسيها إلى أن سمعت الفتاة تلك تقول لرجل عجوز: "كأني أسمع بكاء امرأة، ولكني لا أرى أحدًا"، فابتسم لها الرجل، ثم التفت ناحية ميث ينظر بتعجب، وما لبث أن أشاح بنظره.. كادت أن تموت ميث رعبًا — إنه يراها، قامت تقترب منه بحذر إلى أن وصلت وهي متأنِّية، بتردُّد قالت: "سيدي أتراني.. سيدي؟" فلم يجبها، بل غَمّق عينيه، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم استأذن الفتاة بالذهاب إلى الساحة الخلفية ليدخِّنَ. وبقيت ميث وحدها بين الكتب، وفتاتُه لا تدري أتلحق بالرجل، أم تنتظر ودن ليظهر.. ثم بقيت!

ميث ليست بغريبة على الكتب، فهي قضت سنوات الجامعة بين رفوف مكتبة الجامعة تتأمّل كلّ الكتب، وتقرأ من كلّ شيءٍ تمامًا كفتاة الكتب في هذه المكتبة الجامعية؛ لذا وبعد اعتكاف على النفس ليس بطويل اتَّجهت تتأمَّل الكتب لا ترفع كتابًا لتقرأه كأنَّ نفسها كانت

تبحث عن شيء معيّن.. لا، هي لا تبحث عن روايات الحب.. ولا الفلسفة، أو الحرب. مرَّتْ على رواية "the sorry tale" وهي الرواية التي يشاع أن كاتبتها شبح ألقت بعضًا من فخامة كلماتها على أرملة بسيطة لتصبح بها أرقى كاتبات عصرها، تأملت ميث، وتخيّلت لو أن حال السيدة الشبح "بيشنز وورث" تشبه حالها، وأنها ربما ظلت عالقة بين السماء والأرض، أو بين الأفلاك دون عبور، أو عودة، وبدل اليأس تعلمت التواصل مع البشر، وأبدعت بعد أكثر عن مئتي عام من حياتها الأصلية، ولهذا ربما لم تذكر شيئًا عن حياة ما بعد الموت، فهي بحقّ لم تكن لتعرف؛ لأنها كانت عالقة تمامًا مثل ميث.. إذًا هل على ميث أن تقرأ في السحر؟ أم التخاطر الروحي، أم تتعلم الأدب لمدة مئة عام، ثم تلقيه للبشر؟ كانت لا تريد كل ذلك؛ لأنها لا تعرف لماذا هي عالقة، ولكنها باتت متأكدة بعد رؤية ودن يلاعبها كطفلة علاقة بكل ما يحصل. بدأت الشمس بالغروب، وأغلقت المكتبة أبوابها، ولم يبقَ إلَّا هي.. التجأت إلى طرف الواجهة الزجاجية تبحث عن بعض النور لتكمل يومها، فجلست واضعةً خَدَّها على الزجاج تتأمل الجميع وهم يغادرون، هذا يحمل أوراقًا كثيرة، وذاك يلوِّح لابنه الذي ينتظره على زاوية الرصيف.. تلك بلا أحد، ولكنها تبدو سعيدة ربَّما حظت بيوم جميل، أو درجات عالية، كلٌّ مشغول بحياته إلّا هي واقفة بلا حياة. فجأة ذلك العجوز الذي يتأملها من خلف الصبي بعد أن توقف عن التلويح رأته، إذًا لماذا يتجاهلها؟! هو لا يبدو خائفًا أبدًا، ولا حتى متعجّبًا! مَنْ هو ليستطيع رؤيتها؟ كل تلك الأسئلة كانت تدور في بالها، وغياب ودن أيضًا حيّرها؛ لأنه الوحيد الذي يستطيع أن

يجيب على أسئلتها، ثم نظرت من حولها، تأمَّلت وتأملت حتى قالت تخاطب نفسها: "أو ليست الكتب هي التي تستطيع أيضًا الإجابة عن الأسئلة"، هي لم تكن تسأل، بل تخبر نفسها وبمزيد من التأمّل فكرت لو أنها أخذت الكتب، ووضعتها على الطاولة، ثم لم تُعِدْها سيستفز ذلك العجوز، ولربما يكلمها حينئذٍ.

جمعت ميث مجموعة كتب عن الجن والأرواح، بعضها كان خيالًا علميًّا بحتًا، والآخر كان يستدلّ بدينه، ورموزه والعلم يرفض هذا وذاك.. إذًا لماذا يسمُّونه خيالًا علميًّا!

منذ قديم الزمن كان الجن يستطيع التواصل مع الإنس، وكان أولهم "النمرود" حين التقى بالشيطان نفسه، أو "عزازيل" كما يحب أن يسميه الجن. هو ليس كما يعتقد البشر، فالجن لا يعبدونه، هم فقط يعظمّونه، وشتَّان ما بين الكلمتين، ثم جاء عصر "النبي سليمان"، فحرم تواصل الجن مع الإنس، الطريف ممّا قرأته ميث أن الأحصنة المجنّحة هي حقيقة، وليست أساطير، ووجدت إلى عصر "النبي سليمان".

ميث أكثر ما قرأت كان عن الجن وهيئتهم، القرناء والغيلان، الأبالسة والمَرَدَة، هناك العفاريت الأكثر قوة بين الجن، والسعالي الذي هم السحرة، والعمّار الذين يسكنون مع البشر، وهم أضعف الجن، وأخيرًا هناك صنف خليط حين يتزاوج الإنس والجن وهو موجودٌ حقًّا! تعمَّقت ميث في معرفة مهامّهم لا لشيء إلّا لتعرف من أيّ الفصيل ودن، ولكن هناك القليل عن أشكالهم، والكثير عن قصصهم التي قد يكون بعضها خيالَ كاتبٍ.

كلُّ هذا لم يُجِبْ على سؤالها: مَنْ مِنَ البشر يستطيع رؤية الأرواح؟ وقليلٌ هي الكتب التي تذكر ذلك.. بعد ساعات وصلت إلى نتيجة مختصرة: هو خليط، أو مَرَّ في تجربة قرب الموت، أو له كشف كما يحدث للمتصوفة من شتّى الأديان، أو ربَّما هو ساحر.. ليس روحًا؛ لأنَّ الآخرين يرونه، وليس معه جُنه؛ لأن ذلك لا يخوِّله بأن يرى!

في طَوْرِ البحث في مفهوم التَّصوُّف لدى الأديان، وجدت أنَّ العامل المشترك هو الخلوة، بل ويتشاركون مع السحرة في هذا العامل، إلَّا أنَّ الطقوس.. كلّ الطقوس تختلف في أنَّ لكلٍّ منهم موسيقاه الخاصة إذْ بعضهم اكتفى بصوت الطبيعة، كما أنها فوجئت حين رأت أنَّ بعض مَنْ يسلك هذا الطريق قد ينحرف إلى أمرين: إمّا إلى طريق الجن، والسحر، وهناك فارق.. إذ السحر ليس حصرًا على الجِنّ، فكما يتعلمه الإنس.. كذا الجن، بل إنّ بعضهم لا يجيده. والطريق الآخر "الإلحاد"، فبعض مَنْ يسلك طريق التصوف يلقّن أنه سيتلقى الإجابة بعد كلّ اختبار، وسيكلّمه الرَّبّ — من الأديان ما تقول مباشرة، ومنها ما تقول عن طريقة إشارة، أو وحي، ثم لا يحدث ذلك، فيبدأ بالتفكير، والتأمّل ويرى أنه وحيد هو مَنْ أعانَ نفسه، وهو مَنْ صمد، ولا أحدَ معه هناك، فينقلب ملحدًا، لا ربّ له يهابه، وإن كان في نفسه العجب اتّخذ نفسه إلهًا، وإن كانت نفسه طماعة خدع الناس، وأملى على قلوبهم أنه الوسيلة للنجاة، وقد يظن أيضًا ذلك فعلًا لا خداعًا.. الكثير من الصور، والعلَّة واحدة "من كان المعلم" رجل من قبله اتّخذ منهجًا، أو نفسه الأمّارة بالسوء.. البشر منذ الأزل

اعتمدوا على مبدأ التلقين، وشخص مبدع، هو شخص واحد كفيل بأنْ يغيّر دينًا، أو مدرسةً كاملة، فيصبح كلامه هو الكلام المقدّس إلى أن ينتفض آخر. إذًا ما هو الحلّ؟ ميث فكرت بأنّ هذا هو حالها أيضًا تنتظر ودن ليجيبها فتلقّن، تقرأ من هذا الكتاب، فتحفظ، ثمّ تبني أسلوب حياة، وممّا أثّر على حياتها، وسيرها كل من كان حولها جدتها، وأمها على سبيل المثال، وخالتها التي أرتها أنَّ مَكْرَ الرجال سيأكلها وأيًّا كان اختيارها، فهي ستفشل، كلّ حياتها كانت تلقينًا، وكلّ آرائها هي آراء من كان حولها، وقراءاتها كانت لتغذية المرادفات فقط..

بعد كمية الكتب التي قرأتها ميث من الغروب للشروق، أشرقت بفكر جديد إذ لا سَوْدَاوِيّة فيه، روايات الحب السعيدة هي حقيقية تمامًا كما الأحصنة المجنّحة.

الدين لو كتاب حتى إذا أراد البشر الانحراف يشكل عليهم، وإن غيروا فيه سينقلب بالعقل عليهم، وتظهر الحجة. قد تكون أيضًا كلّ الخرافات حقيقة، إذًا ماذا في هذا؟! لا يغيّر لها شيئًا. لا أحد يربي أحد، فبعد عمرٍ معيّن يكون الإنسان تربية نفسه، أو هو إذًا إمّعة يتبع ما يملى عليه، وهذا يكون زائدًا على بني جنسه. إلّا أن نقطة سوداء ما زالت في ميث بعد هذه الاستنتاجات ما زالت تظن أنه ليس لها إلّا نفسها ولا بأس بالتسلق على الأكتاف لنصل لغايتها، وهي ليست إلّا تصقل ذاتها؛ لذا قررت أن تترك كلّ تلك الكتب فعلًا، بل وتفتحها على الصفحات التي تقول: ساحر وخليط، وقرب الموت، ومتصوف، أو ما يرادفها من كلمات، بل وشاغبت بأن شكلت الكتب على شكل

علامة استفهام. ميث بعد كل ما قرأت نسيت الكتب التي تتحدث عن الذات، وتلك التي عن الروح، بل وأعادتها إلى مكانها دون أن تلقي لها الكثير من الاهتمام.. وتلك هي تمامًا طبيعة البشر.

في صبيحة اليوم التالي فتح العجوز كعادته أبواب المكتبة كأيِّ يوم خلت فيه المكتبة من الأرواح، أو هكذا ظنت ميث حين رأته بابتسامة هادئة يجوب المكان يتأكد من أن الطاولات والأرفف جاهزة لاستقبال الطلاب، وكلّ البشر الباحثين عن المعرفة حتى وصل إلى الطاولة التي صفت ميث عليها الكتب، رمقها بعين باردة، ثم بدأ يضحك، ملامحه كانت تقول إنه فهم كلّ الكلام المقصود، ولكنه استقبل الموضوع بحسٍّ الدعابة أخذ الكتب؛ ليعيدها إلى مكانها، وما إن أدار ظهره ليمشي حتى قال: "يا فتاة، أنتِ تبحثين في الكتب الخطأ" ثم أكمل مشيه ضاحكًا. ميث أحست بأنها كتلة من الجمر تلتهب من القهر؛ لأنها في مكانها تائهة، ولا أحد يلتفت لها، ودن اختفى، ولا إشارة إلى أنه سيعود قريبًا، وهذا العجوز يعلم الكثير، ولكنه يرفض أن يتحدث معها، أو يتحدث لها من بعيد. صرخت في روحها: "كم هي بشعة الأنانية!"، ثم بانت في وجهها علامات الصدمة.. هذه ليست كلماتها، ولا حتى أسلوبها هذه كانت كلمات كلّ من تسلقت على ظهره لتصل لمبتغاها دون أن تحمله معها، أو على أقل تقدير تعلمه شيئًا ممّا تتعلمه هي. هل هذا هو الجحيم الذي هي فيه؟ العقاب الذي يخبر عنه رجال الدين؟ المأوى الذي ينتظر الناس بعد الموت؟ هل هذا هو الجزاء؟ قالت بحسرة: "لكني لقيته يوم الحادث حين نسب كلّ عملي الفردي والمميز للفريق كله، ولم يشكرني أحدٌ،

بل راح الجميع يتفاخرون بما لا يعلمون!" هل كان يجب أن توزّع عمل الفريق عليهم، وتنصحهم في الطريق، وكل ما يقال عن القائد، والعمل الجماعي؟ أم أنها أحسنت حين عملت وحدها؟ فهي أتمت المشروع حتى قبل موعد التسليم. أهم أوغاد أم هي؟ راحت تتساءل.. فكرة تجر فكرة، ذاكرة تسحب أخرى، كيف تداولت الأيام، كيف أنها، وفي أوْج حالتها سخر القدر منها، وسلب شيئًا لا يعوّض، هو الجزاء هكذا لا يكون دائمًا من جنس العمل، بل من جنس النية التي نعمل بها..

محاسبة النفس، ووضعها تحت المجهر تدريب ينقّي الروح.. يجعلها متصالحة.. أكثر بصيرة، وأسدّ رأياً في شتى مجالات الحياة بشرطها وشروطها — فيها يكون العقل القاضي، وعلى يمينه القلب، وبين يديه الضمير، ثم هناك المتهم أفعالنا بالحركة، والقول والمحامي على يمينه يقف شامخًا؛ لأنه غالبًا ما يفوز، واسمه "النفس الأمّارة". إذا كانت المحاكمات تُعقد في أوقات متباعدة، فالغلبة فقط للمحامي أما إذا عُقدت كلّ ليلة، حيث تكون الملذّات نائمة تهبط عزيمة المحامي ذاك، وتتوالى عليه الهزائم. أقامت ميث هذه المحكمة ولم تنتهِ سريعًا، بل استمرَّتْ ثلاثة أيام متواصلة لم تهدأ ليلًا، ولا نهارًا، نسيت العجوز، وفتاة الكتب، وأيّ صخب ممكن أن يحدث في المكتبة، أو خارج الزجاج ليلًا.. في اليوم الثاني كانت هناك حفلة في البارحة، حيث يطلّ الزجاج، ولكن ميث لم تلتفت لكلّ تلك الأصوات أكانَ تكريمًا، أو حفلًا موسيقيًّا هي لا تدري.. هي عالقة هناك تراقب أطرافًا تتصارع على نفسها التي لم تكن نقيّة

كما أعتقد أكثر مَنْ حولها يفوز المحامي كثيرًا، ويغلب أيضًا لا تدري في أية جهة تجلس هل المُدّعِي، أم المدّعى عليه؟ وهي الاثنين! يا لقبيح ما اقترفت! ويا لجميل ما أحسنت! وكيف للميزان أن يتّزن، أو يأخذ جانبًا.. في النهاية لا يهمّ مَنِ انتصر، المهم أن تكون قد فهمت أفعالك، وكيف؟ ولماذا فعلتها؟ وما هو الصحيح؟ والأصح، والأفضل، ثم أيّ الأخطاء تلك التي لا تُغتفر؟ وما تلك التي نتعلم منها؟

ليس بالهيِّنِ أن نحاسب ذواتنا؛ لأنه سينتابنا بعض الضعف، واحتقار الذات، وقد نصل إلى درجة أن نصبح عالقين في زنزانة مع أفعالنا.. تعديها، وتعديها، وتخيّلها لنا ردود أفعال مختلفة في كلّ مرة، والجحيم كل الجحيم أن تبقى رِدَّة الفعل واحدة لا نفكر في سواها.. نراقب أنفسنا نفعل الأمر نفسه مرارًا، وتكرارًا، ثم نصرخ.. نأمر أنفسنا بالتوقف، ولكن ما من مستجيب، هناك سنفقد الحياة، وإن كنا فيها، وهذا يحدث لكلّ المخلوقات..

كما كانت في السماء قبل أن تهبط هي في تلك المكتبة، الفارق الوحيد أن أوراق الكتب تحمل عندها شتاتها.. كل يوم أصبح يمرّ أخفّ عن الذي قبله؛ لأن المعرفة كانت تنقّي الواحد والعِشرين غرامًا التي تحملها ميث، وتحملها إلى عوالم أخرى كما لو كانت في جسدها، وبين مفاتيح سليمان، وما دُفِنَ تحت الهيكل، وأسرار ما وراء الطبيعة عند بني البشر توقفت، رفعت رأسها، ثم أخذت نفسًا.. قال بصوتٍ واضح وبكلّ قناعة "وما ضرّني أن ودن جِنِّيٌّ نارِيٌّ، أو أن الإسقاط النجمي هو تنويم مغناطيسي ذاتي، أو واقع.. ما شأني إن تزاوج الجنّ والإنس، أو أنّ حروبًا قامت بسبب عالمٍ آخر! نعم عرفت،

وتفقّهت، ثم ماذا؟.. ما زلت هنا، وليس هناك كتيب للخروج، ويلي وكأني قرأت في كلِّ الطرق إلَّا طريقي.." ثم أخذت نفسًا مرة أخرى والتفتت ترى مَنْ حولها. هؤلاء البشر يسرحون، ويمرحون، ولو أنهم يعرفون! ومن بين كلِّ هؤلاء الذين هم حولها كان ذلك العجوز ينظر إليها، وكأنه يشعر بها، ويسمع كل حديثها، إلَّا أنها هذه المرة لم تشأ أن تنظر إليه طويلًا، فلا حاجة لها به إن كان فقط يعلم بوجودها، ولا يقف ليسْنِدَها. ما فائدة مَنْ حولك إن كانوا يعلمون بألمك، ثم يتفرجون، ولماذا تبقى في حياتك من يعيشك كمسرحية يتألم لألمك، ولا يعتلي المسرح ليكون جزءًا من الألم يخفِّفه عنك.. وعجوز المكتبة كان كذلك إلى تلك اللحظة التي بعد أن التفتت ميث عنه بعيدًا تقدّم نحوها؛ ليخبرها بأنه يرغب في الحديث معها، ولكن بعد أن تغيب الشمس، ويغيب الناس عن المكتبة. هل حصلت ميث على مبتغاها أخيرًا؟ أم أنه جاء ليشتِّتَ السكينة التي حصلت عليها بعد عناء..

الترتيلة الثالثة (الجزء الثاني)

كم كان انتظار الغروب أمرًا صعبًا لدى ميث! إذ كانت لا تستطيع التركيز في أيِّ شيء غير ذلك اللقاء موقّتًا بأن الحديث مع العجوز سيكون كالبوابة لعالم آخر، أو نورًا يأخذها بعيدًا عن كل المشاعر التي تمرّ بها.. ميث لم تكن تدري عن أي الأمور تسأل، فهي لا تريد إلَّا الخلاص من الوحدة التي تعيشها، وفجأة هناك عند تلك الفكرة تذكَّرتْ ودن، وأحسَّتْ بالشوق له، ولكن ولسبب غريب خافت من شوقها أن يستدعيه لها، أو يجرُّه بقوة غريبة ليكون حولها، فمحت من تفكيرها أية ذكرى تجرّ الشوق، وتُربيه..

وبعد طول انتظارٍ ها هو المكان قد خلا لا أنس، ولا نور، الكل رحل، ولم يبْقَ إلَّا هي تنتظر العجوز أن يتجلَّى لها بحكمة هو يخفيها عنها، ولكن الليل حلّ.. راحت الساعات تمرُّ واحدة تلو الأخرى، ولم يأتِ أحدٌ إلى أن حلّ منتصف الليل ودَقَّتْ ساعات الحرم الجامعي، ومضت منه خمس دقائق.. دخل العجوز يمشي كأنه قد جاء باكرًا، ميث لم تنتبه عليه، فقد كانت كعادتها في كلّ الليالي التي مضت تجلس بجانب الشباك تتأمل، عسى أن يكون الفرج في أحد العابرين، أو ربما ينزل من السماء.. بينما هي كذلك، كان العجوز يسحب كرسيًّا ليجلس عليه، فانتبهت هي لتلك الضجة، وحين رأته أخذت نفسها عميقًا، ثم أخرجته، وراحت تتقدَّم نحوه ببطء شديد، سحبت بهدوءٍ تامّ الكرسِيّ المقابل له على الطاولة، وجلست، ثم لم تنطق بأية كلمة، وهو كذلك؛ ولأنه عجوزٌ صبورٌ كانت تعلم أنه سيطول بها الانتظار إن

لم تبدأ هي.. قالت وعينها تدور في كلِّ الاتّجاهات إلّا جهته:

– لم أكن أعلم أن الغروب هو منتصف الليل.

– أذكر أنني قلت بعد، ولم أحدّد التوقيت.. (سكت قليلًا، ثم أردف): كان عليّ أن أتأخر يا صغيرة؛ كي لا يتحوَّل الحديث إلى استجواب..

– استجواب؟! (وعلامات الدهشة ممزوجة بالحزن على وجهها).

– نعم.. يحدث هذا لكلّ إنسان حين يكون على موعد مع أحدهم، يجهز أسئلة كثيرة، ويتخيَّل نفسه المسيطر على الحديث، ثم مع الوقت يهدأ.. يرسم سيناريوهات أقرب إلى الواقع قد يكون عددها أكثر، وقد يكون أقلّ، والأهم من تخيّلاته أنه أهدأ، وتذكري أنا لا أقول إن التخلف عن المواعيد أمرٌ جيّد؛ لذا لم أعطكِ ساعة بعينها..

– هل تعلم لماذا أنا هنا؟

– لا.

– التفسير المنطقي الوحيد.. أنا هنا؛ لأن أحدهم يستطيع رؤيتي.

– هل مُتِّ؟

– لا، ليس بعد.

– كيف إذًا استطعتِ التجوُّل في أماكنَ لا تعرفينها؟

– مع جِنِّيٍّ كنت أجوب السماء، والأرض.. أو لأكون دقيقة كنت أتلقّى دورسًا في السماء والأرض..

– إذًا لا بُدَّ أنك مميزة جِدًّا لهذا الجِنِّيّ، أو عند مَنْ بعثه.

– بعثه؟

– نعم، فبعض الجِنِّ هو مبعوثٌ إمّا من جِنِّيٍّ آخرَ، أو من إنْسِيٍّ.

– لا أعلم.. ولكن كيف تعرف كل هذا؟

– آآه، لقد كنت في صغري مهووسًا بالعالم الآخر.. مولعًا بالسحر، وكان فيما قرأت أنه إذا قام الإنسان بالموت بطقوسٍ معيّنة، ثمّ العودة إلى الحياة، فإنّه سيرى من الحياة ما لا يتكشَّف لغيره.

– لهذا أنت تراني.

– نعم، ولكن التجربة لم تكن بهذه السلاسة.

–أخبرني أرجوك.

– حين متُّ بالطقوس التي ذكرت في كتاب السحر على سطحٍ خشبيٍّ كان على الأنثى التي أحب إنعاشي، ولقد قامت بذلك بكلِّ سرعة، ولكن ما رأيته كان فظيعًا..

– لماذا توقفت؟ ما الذي رأيت؟ هل رأيت الباب؟!

– نعم، كان هناك بابٌ مفتوحٌ على مصراعيه.. النور الذي يخرج منه كان يُغْشي الأنظار، ولكنه انطفأ فجأة، ولم أكن أستطيع أن أرى إلّا الشرار يُقْذَفُ عليّ من كلِّ اتّجاه، لا أعرف مصدره؛ لأن المكان الذي كنت فيه كان مظلمًا جِدًّا، ثم استيقظت مفزوعًا على وجه حبيبتي، فشعرت بقليل من الأمان.

– وهل فعلًا كنت تحترق؟!

– انتظري.

رفع كُمَّ قميصه، فكانت هناك حفرةٌ كأنّ نَيْزكًا بالأمس قد

هبط فيها، اقتربت بأصابعها نحو ذلك التجويف، فكان ساخنًا جِدًّا إذ لم تستطع لمسه.. رفعت عينيها، ونظرت إليه، والدموع في عينيها. بينما الابتسامة في وجهه.

- إنه ساخن! ساخن جِدًّا.. لماذا؟

- هذا ما يحدث حين اقترب من العوالم الأخرى حين أحاول أن أتدخل فيما لا يعني البشر.. أردت أن أصبح ساحرًا، فهذه كانت النتيجة.

- إذًا استيقظتَ وعدتَّ لممارسة حياتك الطبيعية بعيدًا عن الجِنِّ والسّحر.

- لا لم يكن الأمر كذلك.. فحين استيقظت كانت هناك مراسمُ لتتويجي ساحرًا، وكتبٌ سأحصل عليها لا يقربها أيُّ ساحر.. فقمت لها، وأخفيت ألمي؛ ولأن حبيبتي كانت تشعر بألم روحيٍّ قبل جسدي جاءت إليَّ على انفراد أمسكت بيدي، حيث تحرقني فاحترق كفُّها، ولم تحملها بعيدًا، ولم تنطق إلَّا بكلمتين: "عليك أن تتوقف".. لم أردّ عليها، بل اكتفيت بأن أبعد يديها؛ لأطبِّبَها، وحين انتهيت نظرتْ إليَّ نظرة لم أعهدها منها من قبل، نظرة الخوف فخفت أن أخسرها، وفي المقابل خفت أن يعلم أقراني بنيتي؛ لأن عقاب التخلِّي موت العزيز، فأخبرتهم بأننا سنذهب للزواج على قارب في المحيط، فأعجبتهم الفكرة؛ لأن الطب لدى الجن في الماء، والقوة، والأبدية أيضًا في الماء، فعملت على تحصين القارب، وإيَّاهم بكلماتٍ من الكتب المقدسة بحجة ألَّا يتعرض لنا أعداؤنا، وفي حقيبتي حملت العديد من الكتب لمراسم التخلِّي..

– ثم ماذا؟

– كانت رحلة شاقة قتلت فيها أحد أعزّ أصدقائي؛ لأنه أراد قتل من أصبحت لاحقًا زوجتي.

– ولماذا قتلته؟

– لأنه رأى الكتب حين كان يساعدني في ترتيب أغراضي، وفهم نيتي، كان ورثي أيضًا.. أخبرني على القارب بأن تنحيّ أمر جيد له، ولكنه ليكون مخلصًا، فعليه أن يعاقبني، وينشر الخبر لتهابه الجن والإنس، وكان آخر عمل أقوم به هو قتله بالسحر بينما كان يمسك بزوجتي كالخروف ليقدِّمَها قربانًا! فكانت السخرية أنني استخدمت دمه قربانًا للخروج من ذلك العالم!

– وهكذا فقط؟

– لا، بل ومرضت أربعين ليلة تديَّنَتْ فيها زوجتي، ووجدت فيها طريق الرب، وكانت ترقيني بكلّ الكتب السماوية، وكنت أستمع لصوت دعائها، ولكنِّي أعجز عن الإجابة..

– وهل تركوك بهذه البساطة؟!

– نعم، السحرة والجن يحترمون الميثاق، والعهد. وأنا قد أدَّيت كلّ طقوس الخروج..

– ولكنك تستطيع رؤيتي.

– نعم رؤية الأرواح، والإحساس بوجود الجن هو كلّ ما بَقِيَ لي، فأنا هنا وممتَنّ لكلّ ما حدث لي؛ لأنه أتى لي بتوءَم روحي.

– وهل تستحقّ كلّ هذا العناء.

– هي.. طبعًا. (ضحك حتى بان بياض أسنانه، وتلألأت

عينـاه).

– سيدي، هل تؤمن بالله؟

– مـن عـرف السـحر والجـن أيقـن بـالله أكثر من غيـره، فما بال من تركه!

– إذا لا علاقة لإيمانك بتديّن زوجتك!

– لـو أتـى الحـب قبـل الإيمـان، فهـو مؤقّـت، ولـو سـبق الإيمـان الحب، فهو أبَدِيّ.. الحب يا صغيرة هو الداعم للحياة.. هو كالرائحة، والطعم لما تأكلينه.

– بالنسبة لي الحب لم يكن سوى خيبات أمل.

– لا بأس، المهـم ألَّا تستسـلمي، وأن تتأكـدي مـن أن أحدهـم هنـاك هـو نصفك الآخر.

– ولكن هناك الكثير مِمَّن يمضي عمره بلا شريك مناسب.

– لأنـه لا يؤمـن يـا صغيـرة، أو لأنـه يـرى فـي الجنـس المقابـل رغبـة بـلا حاجـة، أو حاجـة بـلا روح. الحـب أن تحبِّـي نفسـك قبـل كل شـيء.. أن تؤمنـي بأنـكِ تسـتحقين الأفضـل، هـو ألَّا تقفـي أمـام مرآتك لتسـألي لمـاذا أنـا، أو لمـاذا يحـدث لـي هذا! حين تؤمنين بأن كل شـيء يحدث لمصلحتك حتى إن لم تفهمي العلّة فيه حينها؛ لأنك تستحقين الجميـل؛ ولأن مَنْ خلقـك لا يرضـى لـكِ إلَّا الجميـل، فهـو الجميـل.

– كلماتك هذه تجعلني أشعر بأنني لا أحب ذاتي.

– إن كنـتِ تحبيـن ذاتـك، أو شـخصًا آخرَ لكنتِ بجانب جسـدك الآن.

– مؤلم.

- لا تبكي يا صغيرة أرجوكِ.

- أخبرني كيف تحب ذاتك؟ وكيف أحببت زوجتك؟

- أحببت ذاتي؛ لأنني المسيطر على قراراتي، فأردت أن أكون رحيمًا حكيمًا مع نفسي.. أما زوجتي، فأحببتها؛ لأنها خُلِقَتْ لي، لم يخبرني أحدٌ، لكني أحسست بذلك حين رأيتها.. اسمعي يا صغيرة، حين نحب بصدق نحن لا نبحث عن الأسباب، نحب وفقط، هناك تعلمين أنك وجدتِّ الحب.. الحب لا يجعلك تتَّخذين قرارات حمقاء، الحب الحقيقي يجعلك أقوى، وأذكى، وأكثر انفتاحًا على نفسك والحياة..

- لم أفهم من كلامك كيف أحب نفسي.

- لا أحد يستطيع أن يخبرك كيف تحبين نفسك أبدًا، وكل الرياضات الموجودة قد تنجح، وقد لا تنجح.. فقط اعلمي أنَّ لك عقلًا يجب أن تغذِّيه بالعلم، وقلب بالحب وجسد بالصحة، وروح بالإيمان والطبيعة.. إن توازنت هذه الخصال ستجدين الطريق، والنور للحياة بطمأنينة.

- قال لي أحدهم إنه لا فرق بين الحب، والتعلم.

- صحيح، الحب يجعل العلم راسخًا، ويفتح فيه أبواب الابتكار والفهم.

- لم أعد أعرف.

- هذا جيِّد؛ لأن الاستنتاجات السريعة تجعل الفائدة قليلة، ولكن حين تقلب المواضيع في عقولنا، وقلوبنا تكون الاستفادة أكبر؛ لأنها أكثر ثباتًا..

- ربَّما.

- حسنًا يا صغيرة، سأتركك الآن؛ لأن هناك جِنِّيًّا قادمًا، ولأن الحديث وصل نقطة النهاية.. هل ستبقين في المكتبة؟

- لا لو كان حدسك ما زال كما هو، فهذه وسيلة انتقالي إلى حكاية جديدة.

- فلتترك الحكايات لقلبك الدروس لا التأثر فقط.

- شكرًا جزيلًا لك، أتمنى لك العمر المديد، والحياة السعيدة.

- وأنت يا صغيرة أتمنـ..

لم يكمل العجوز كلمته؛ لأنَّ جسمًا ما طرحه أرضًا، وجثا على صدره كأنه سيحتز نحره، ويحمل رأسه، رفع السيف، وقال وهو في حال استعداد: "أيها العجوز القذر، الآن فقط تتكلم.. كنت أعلم أنك قتلت رفيقي الأنسيّ"! كل هذا والعجوز في حالة صمت غريبة.. لا تظهر على ملامحه علامات الخوف، أو القلق، وميث في حالة صدمة، وفوضى داخلية تحمل نفسها مسؤولية ما يحدث، وتعلم ممّا قرأت بأنَّ الجِنِّيّ لن يقتل الرجل حتى ينطق بكلمة على الأقل، ولو أخذ الوضع دهرًا.. كان عليها أن تتصرف..

نادت في أعماقها "ودن حضورك أمر، وحمايتك لمن أرغب واجبة، ودن إن لم تفعل، فأنا في مكانه"، ثم رفعت صوتها تقول: "أيها النتن أبعد نتانتك عن هذا العجوز، فأنت إن خدشته سآمر بسجنك وتعذيبك" رفع الجِنِّيُّ السيف عن العجوز واتّجه جهة ميث يقول باستهزاء: "من أنتِ أيتها الروح التائهة".. ابتسمت

ميث بتحدٍّ، وقالت بثقة لا يخدشها شيءٌ: "لا كلمات مشفّرة؛ لأن الحديث كان مُحَصّنًا، ألا تنظر إلى النار قد فتحت أسفلك، انتظر وإن لم تجد، فرأسي قربانٌ لك". لم تكن هناك نارٌ، ولم يَرَ الجِنِّيُّ شيئًا، فتقدّم بحنق حاملًا النصل الحديدي القادر على تمزيق الأرواح متّجهًا بثبات ناحية ميث التي لم تغمضْ عينيها لوهلة، ولكنه لم يصل؛ لأن النار فعلًا اشتعلت أسفله، وحوله، فقالت ميث: "والآن ستنطفئ النار؛ لأننا سنهديك حياتك مقابل أن تترك الرجل، ومن يحب، وذريته ما حييت" أطرقَ الجِنِّيّ رأسه فانطفأت النيران، وطار بعيدًا كأن لم يحدث شيء. نهض العجوز مستغربًا من ميث، بينما أسرعت هي إليه تطمئن على حاله: "لا تستغرب يا سيدي، فقد تعلمت اليوم أن أحب نفسي يعني أن أثق بها، وبقدرتها، ثم إن هناك جِنِّيًّا أعلم أنه لن يترك أحدًا يقتلني، فقد أنقذني مرارًا قبل ذلك.. أعتقد أنني فهمت سبب وجودي هو لي، وأيضًا لك"، ابتسمت ميث وهي تشعر براحة؛ لأنها ساعدت أحدهم دون مقابل، فهمت لحظتها أن مساعدة الآخرين تضفي على الروح راحة، وسعادة، وأن الإنسانية ليست إلَّا بالشعور بالإنسان الآخر. الغريب هو أن ميث لم تَرَ ودن، ومع ذلك قالت: "هيا يا ودن لِنَعُدْ إلى حيث كنا، فالدرس رسخ، والمهمة تمّت"، فارتفعت ميث إلى السماء عابرة من تلك النوافذ الزجاجية مخلِّفةً وراءها أشلاءها المحطَّمة مغادرة بروح أنقى ممَّا كان عليه، إضافة إلى إنسان يستطيع أن يظهر في العلن دون خوف من ماضٍ غامض، وجريمة قتل أثقلت كاهليه، والفضل يعود لمساعدة ميث بعد أن ساعدها هو بدوره لتكون كما أصبحت حين استطاعت أن تعبُرَ تلك

النوافذ الزجاجية..

الترتيلة الرابعة (الجزء الأول)

"الأثر يدل على المسير، والبَعْرَة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرضٌ ذات فِجَاج، وبحارٌ ذات أمواج...".

هذه الجملة قرأتها ميث حين كانت تتنقل من كتاب إلى آخر في تلك المكتبة، وأثناء عودتها إلى السماء حين كانت تتأمل الأرض وتضاريسها، السماء ونجومها، الصاعد والنازل إليها.. فبعد أن يهدأ القلب، وتُنَقَّى الروح تصبح رؤية الأشياء أكثر وضوحًا وأجلى للقلب، بدا لها كلُّ شيء وكأنها تطير لوحدها، تمسك هي بزمام الأمور حتى عادت إلى حيث بدأت الرحلة فوق الغيوم.. جلست تتأمل بصمت إلى أن ظهر ودن أمامها يتحرك نحوها بلا ملامح واضحة عن شعوره، كأنه كان بجوارها طوال رحلتها..

– لا أظنك فخورًا بي لزَجِّكَ في تلك المشكلة التي لم تكن تخصُّني، ولكنني فخورة بنفسي جِدًّا.

– هذا يكفي.

– هل أنت هنا لتأخذني لرحلة جديدة، أم لتتحدث معي، أم فقط لتراقبني؟!

– أنا هنا لأسمع منك.

– لَدَيَّ الكثير لأسأله، ولكنه هناك شيءٌ يجوب في داخلي يلهيني عن أيِّ شيءٍ، وكل شيء.

– نعم يا ميث، سمعتك تفكرين بتلك الجملة عن البعير، والمسير.

- منطقي كان الكلام.

- وما الذي يأخذ تفكيرك؟

- دون أية فلسفة وجود الله والإلحاد فيه..

- وماذا في ذلك؟

- ما فائدة الإلحاد إن كان الغالب هو وجود الله؟ ألا يرغب في أن يعبد دون تشكيك وهو الذي يقول عن نفسه بأن له السلطة المطلقة؟

- نعم، هي له ولكن كيف يرتقي المعبود دون الشكوك.. تخيَّلي لو أن المخلوقات كلها مسلمة للرَّبِّ كيف يتفاضلون؟!

- لماذا يتفاضلون؟

- لأن البشر مُيِّزُوا بالعقل، وله حقٌّ عليهم أن يستخدموه... أن يتفكروا، فإن وثق الكل بكِ، فلن تسعَيْ لتطوِّري من نفسك، هكذا الإلحاد بلاءٌ لمَّا أساء لنفسه، ونعمة لمن سمع به، وتفكر، ووجد إيمانه الحقيقي.. هذا ديدن كلّ الأمور يا ميث نحن لا نمرُّ بالضدّ لنتنوّر، هو هداية أكثر من أن يكون بلاءً، وقد يكون بلاءً لمن أساء لنفسه إساءة عظيمة..

- هو لنفسه؟

- نعم، ثم يأتي دور العوامل المحيطة.

- كتأثير الجين والطبيعية.

- نعم، أظن الكتب كان إجازة مثرية لكِ (بانت علامة الفخر كأبٍ رأى ابنته تكتب أول حرفٍ لها باستحياء، يضحك لها لا عليها).

- بعض الشيء (قتلها بابتسامة بريئة، وعيناها مغلقتان

كأنها تتخيَّل كلّ تلك الكتب التي قرأتها، وتشتاق الآن لرائحتها.).

- ممّا قال بعض البشر في إعلاناتهم: "الطقس يفعل العديد من الأشياء المختلفة".

— وكذلك الدين" ما رأيك أن تذهب في رحلة نلعب بالطقس قليلًا لنرى ماذا يفعل الدين، وكيف ينظر الناس من خلاله، وسببه للرب؟

- لم يسبق أن فعلنا ذلك.

- أظنك مستعدة.

ودن ما كان ليزجّ بميث في أن يريها كيف تكون قدرة بني جنسه في العبث مع جنسها إلَّا يقينًا منه بأنها لن تركز في سلطة الجن العظيمة؛ لانشغالها بأمرٍ أعظم منه؛ ولأنها سترى شبيهًا لهذا الأمر في رحلتها القادمة، أرادها مستعدة لما سيصور أمامها ثابتة على اليقين الذي هو يعلم أنه سيزرع فيها؛ لأنه ما من إنس رأى ما للجِنّ من سلطة دون عقيدة مسبقة إلَّا، وانجرف لهم وتصوّر لنفسه بهم دينًا بلا دين، حجة بلا بيان وهوى بلا استكان.

وفي رحلة اليقين نزل ودن بميث إلى جامعة عريقة "أحد أهدافه المَخْفيَّة أن يعيد ميث إلى حيث ارتطمت، وتحطَّمَتْ، وحيث جُمِعَتْ أشلاؤها"، في المرة الأولى كانت مكتبة الجامعة هي الوجهة؛ لأنه في حياة ميث الجامعة هي من بَدّلتْ شخصها وحوَّلتْ من شخصيتها البريئة إلى ما كانت إليه، فأراد من المكان نفسه أن يكون هو من يعيدها لبناء نفسها، وهناك مجدَّدًا أراد أن يختبر ثباتها بعد الارتطام الأخير..

تمشي ميث في أحد ممرّات الحرم الجامعي تنظر من خلال النوافذ التي في الأبواب إلى المدرجات، إلى حال الطلاب، وهم يستمعون إلى المنظّرين والدكاترة. يقف ودن أمام أحد الأبواب، ثم يعبر من خلال الباب كأنه ليس بمادة، ثم فجأة هو في أعلى المدرج، تتبعه ميث على عجل، وتقف بجانبه في صمت..

– هل تعرفين داروين؟

– نعم، ومن لا يعرفه؟!

– ذلك الفتى الجالس في منتصف القاعة هو وزميله.

– هذا فصل الأحياء، كيف لا يعرفانه؟

– لأنهما جاءا من مجتمع متديّن، ولا يجمعهما الدين، فقط التدين.

– نعم، صحيح بعض المدارس التي تتبع دينًا معيّنًا إذ هي متشدِّدة فيه ترفض طرح هذه النظريات؛ لأنها تخالف الدين، ولكن هل هي حقًّا؟

– انظري، أحدهما ينظر بحماس كأنه اكتشف طريقًا جديدًا، والآخر بحنق كأنه يريد ترك القاعة.

– هل تظنّ أن ذاك المتحمس سيترك دينه لدين العلم؟

– هذا أو أنه سيعيد صياغة دينه ليتماشى مع علمه.

– وما رأيك أنت؟

– هل تعتقدين يا ميث أن الكون وُجِدَ من العدم؟

– لا وإن سلمنا للانفجار العظيم سيبقى السؤال مَنْ أحدثه، أو أوجد مكونات هذا الانفجار؟

– إذًا هل تظنين أن من أوجد هذا الكون عاجز عن أن يخلق المخلوقات في أحسن صورة تناسب بيئاتهم، أو هو غير عالم بأن هذه المخلوقات قد تنتقل لبيئة أخرى وستحتاج لخصائص أخرى.

– لا أظن، هذا نقصانٌ، وقصور.

– نعم.. ولكن ما كل تلك الأحافير

– (يضحك ودن) بعضها من صنع إنسان يائس قرر بإبداع صنعها، وبعضها يعود لكائنات انقرضت، أو تغيّرت عظامها؛ لأنها كانت طعامًا لغيرها من المخلوقات.

– ولكن المحاضر يبدو واثقًا.

– لأنه لقِّنَ، وحُفظ جيّدًا ما يقوله.

– نعم مررت في فكرة التلقين سابقًا.

– اليقين هو قوة عظمى، فطرة لدى المخلوقات، وحين لا يرغب المخلوق بأن يكون ذلك الرب الذي يجب أن يعترف فيه يختار لنفسه شيئًا آخر، العلم في هذا المثال.

– ولكن العلم مثبت بنظريات ملموسة ليس كما تمليه الأديان.

– والعلم لم يكن إلَّا نظريات، وقضايا فلسفية سعى أهلها لإثباتها، أمّا أهل الديانات فأغلبهم ينظّرون، ويتحجّرون بآرائهم، بل ويقذفون من لا يؤمن بهم، وهذا ما ينفِّر البشر منهم.. هذا المحاضر هو رجل نظريات، أي أنه ليس تطبيقيًّا؛ لذا هو متمسك برأيه، فهو كرجل الدين يرى حروفه هي الصحيحة، والأول يشكل على الثاني بما أسماه "إله الفجوات".

– بعد أن رأيتك، ورحلت معك بِتُّ أؤمن بأن هناك فجواتٍ لا

تفسير لها.

– لا تقعي في هذا الفخ يا ميث، فإذا وجدت النتيجة وُجِدَ السبب، هكذا هو الخلق ولكن البحث في السبب هو الأمر الذي فيه المشقة والصعوبة.. حين حرم البحث في العصور الوسطى.. سأم الناس من كون عقولهم محجرة، وانتفضوا على دينهم وحين جاء الدين يحث على البحث، تطوّر مَنْ كان لا يفقه في حياته إلّا ملذاته.

– إذًا هل الدين هو أساس الأشياء؟

– الإيمان هو أساس الأشياء كما الحب أيضًا هو جزءٌ من الأساس.

– ولكن مسألة الدين يختلف اتّجاهها عن العلم.

– لهذا أنتم متأخرون! الدين لم يوجد ليشعر الإنسان بالأمان فقط، بل كل الرسالات التي أنزلت هي واحدة، الاختلاف فيها هم الأقوام.. أما الحديث، فهو نفسه عن الكون وعلومه، وعن الإنسان، ومعاملاته.

– تقصد أن الإعجاز موجود في كل الأديان؟

– ليس إعجازًا سوى بالنسبة للبشر، هو علم، فاللّه تكفَّل بأن يعلم الإنسان من خلال رسله كل شيءٍ، وهكذا نحن الجِنّ تعلمنا، إذ لم نولد متعلمين، بل نسخنا وكتبنا وتفقهنا، كل العلوم التي لديكم هي لدينا.. التطبيق يختلف.

– يحضرني سؤال.. لماذا طبّكم في الماء؟

– لأنَّ كلَّ شيء حيٍّ خُلِقَ من الماء بشكلٍ، أو بآخر.

على تلك الجملة كان قد بدأ الطلاب بالانصراف؛ لأن

زمن المحاضرة انتهى، وقبل أن تخلو القاعة من الناس نزل ودن من مكانه مغادرًا تتبعه ميث، وهي تتأمل حال الطلاب وحديثهم.. تتذكر حالها حين كانت في مثل حالهم لا تدري أين تصبّ اهتمامها، أو في أيِّ الأمور تركِّز لأن عقلها كان يشدّها إلى الدرس وقلبها إلى العشق، أما في وقتها الحاضر، فهي مشدودة بين العلم والدين. تَبِعَتْ ودن الذي كان يمشي على هدًى من وجهته إلى مختبر العلوم، حيث كان لا يسكنه شيءٌ إلّا المعدات والكثير منها، فتح أحد الأدراج، وأخرج كتابًا بدا أنه كتابٌ دينيٌّ، وضعه على الطاولة، ثم ابتعد إلى حيث تقف ميث. فجأة ظهرت عينا ودن الأصلية تلك التي لا يعرف الناظر إليها أهي مرآة لجهنم، أم لنجوم الكون.. بسرعة عادت عيناه للتشكُّل على هيئة عيون البشر دون أن يعلق هو، أو أن تخاف ميث. ليس بالطويل.. بعدها دخل رجلٌ تصحبه امرأة جميلة شعرها الأسود يجذب الجن قبل الإنس.. بشرتها البيضاء الناعمة، وعيناها سبحان المعبود، ترتدي المعطف الأبيض، وتحته فستان قصير باللون الأزرق، وتلبس حذاءً رياضيًّا ليسهل عليها الحركة، زميلها ذهب إلى أحد الأفران، أما هي، فاتجهت إلى حيث الكتاب على الطاولة — وما كان ذلك إلَّا بوسوسة من ودن، أو أمرٍ منه لأحد جنوده ليفعل ذلك، حملت الكتاب متعجبة، نادت على زميلها: "ما هذا؟" التفت إليها، ولم يَدْرِ كيف يجيب، ثم قال: "حين نقلونا إلى الأبحاث المختبرية من بعد الأبحاث الورقية بِتُّ أستغرب الكثير من الأمور، وأشكِّك في الكثير من الفلسفات، التطبيق يختلف عن التنظير، فأردت أن أرى كيف ينظر أهل الإله إلى الأمور.. الحق يقال إنني لمست بعض السكينة هي لم تتردد حين

أجابت "، ولكن الدين يجلب العنف، ونحن مَنْ يجلب النور".

هي لم تكذب تمامًا، فهذا الواقع منذ بداية التاريخ، العنف الديني ليس بجديد، فأول من جاء به هم السومريون، ففي سومر ساد الظلم والعنف من قِبَلِ السلطة الدينية التي كانت هي الحاكمة على المزارعين الفقراء، ومن هناك نشأت الطبقية، ومن وراء الطبقية نشأ التطور في الفنون والعلوم، واخترعوا الكتابة أيضًا لا ليبدعوا فيها. إنما في البداية كانت لنص القوانين، والتحكم في المجتمع، ثم جاءت ما ورد في الأساطير ما يعرف بحرب الآلهة، ولم يسلم منها البسطاء، وهكذا تداولت الأيام ليظهر في كلِّ عصر مَنْ يحمل السيف باسم الرَّبّ والدين، ويقتل قرناءه دون تفكير حتى لو كان المقتول أخاه من أبويه؛ لذا سأم الناس من فكرة الرب الواحد والدين. ولكن لأن الانسان هو كائن باحث عن المعنى لا يستطيع العيش دون أن يبحث له عن سببٍ، ومعنًى لحياته.. هو منزعج من فكرة أن يظلم، أو أن تُفنيه الطبيعة بإحدى كوارثها، ويتساءل دائمًا في الكون وعظمة صنعه، وكيف تعود الخضرة بعد قسوة الشتاء.. ومن هذا كله نشأت "الفلسفة الخالدة" التي تكمن في توق الإنسان من الأزل لقوة عظمى، ومثال تلك القوى اختلفت باختلاف العصور، ففي العصور القديمة اتَّخذ البشر الآلهة، أو الأسلاف، أو الأبطال التاريخيين، ثم اختلفت مجدَّدًا ليأتي الجن أو الشمس، وجاء ممّا جاء العلم الذي هو من اختراع الإنسان مثل كل ما سلف؛ ولكي يبعدوا أنفسهم عن فطرتهم التي تحاكيهم برَّروا لأنفسهم أن الدين ليس إلَّا مؤسسة، وتشريعات تتمركز حول إلهٍ فائق للتوقعات لا يصل إليه أحدٌ ولا يهتم هو لأمر

أحد، ثم ليقنعوا أنفسهم حاولوا، ونجحوا في إقناع غيرهم، إلَّا إن خافوا البعث - لأن البعث أيضًا فطرة خَفيّة في الإنسان - حوَّروا الدين لمصالحهم، وجعلوا لهم أتباعًا؛ حتى يشعروا بأنهم على حقٍّ، وهذا حدث بعد كلّ دين سماوي تنزل — ببساطة ما حدث يُعبر عنه بالفتنة الكبرى، فما قال عقلٌ إن الرَّبَّ ثالث ثلاثة، ولا قالت فطرةٌ إنه لا والي على دين، فلنتخيّر من النجوم، ما قالتها إلَّا أهواء البشر، وللسبب نفسه نجا بعض البشر، ولم ينجرف إلى تلك الصيحات؛ لذا وجب أن يُحارَب بأية طريقة؛ بدأت الحروب بالحجر والسيف، ثم اكتشف البشر قوة الكلمة، ثم اكتشفوا ما هو أعظم: إثبات الضد.

وبين كل ما سبق ضلَّ الكثير طريقه، بعضٌ ليثبت أنه متطور مع المتطورين، والآخر جرّاء معاناةٍ، أو تعنيف. وهناك من سار وراء ما يعيش حوله فقط. كل أولئك تعبوا من التنظير الذي رَأَوْه، له في كلّ يوم ضدّ من نفس عباءته، بعضهم قرأ التاريخ، فرأى فيه التزييف من كلّ الفرق وكلّ الأديان، وما كان إلَّا أن يتبرَّأ من كلٍّ شيءٍ، ويطلب من الإله إن كان موجودًا أن يخاطبه بإشارة حتى يتوقّف الدعاء تدريجيًّا ويعيش هو المجهول، لا إشارة رأي، ولا راحة بال حين يطرأ لو موضوع وجوده، ومن أوجده..

نظرت ميث إلى ودن يحزنها النقاش الذي يدور بين الزميلين تسأله بحزن:

- مَنِ المسؤول؟

- كل من ارتدى عباءة، وادَّعى أنه يتكلم عن اللّه أو دينه،

الوالدان اللَّذان ينجبان دون مسؤولية فقط بدافع الأنانية؛ ليشعرا بشعور الأُبُوَّة دون أن يطبِّقاها، ثم هناك النفس يا ودن، فالباحث عن الحقيقة بِنِيَّةٍ صادقةٍ لا بُدَّ من أن يجدها دون شك؛ لأن هذا قانون الطبيعة..

ومن وراء كلِّ تلك الاختلافات كانت، ولا تزال لَدَى الإنسان الحاجة للارتباط الروحي، إن لم يجدها في دور العبادة، سعى خلفها يبحث من خلال الفن، أو الحرب، المخدرات، أو الموسيقى.. الجنس، أو عند الانخراط في الطبيعة، فالإنسان يملك ثلاثة عقول في جوفه:

عقل بدائي يبحث من خلاله عن الطعام والأمان والتناسل، ثم هناك الحسّ الطرفي الذي وُجِدَ للإحساس بالكائنات من حوله، وهذا الحس هو الذي يعطيه شعور الرغبة في مساعدة شخص ما كما هو نفسه الذي يجعله متعطِّشًا للحب، أما العقل الأكثر تعقيدًا، فهو ما أطلق عليه علماء البشر "القشرة المُخِّيَّة الحديثة" التي هي بمثابة "مسكن القوة العاقلة"، والوعي بالذات. والثلاثة عقول مجتمعة تجعل الإنسان على ما هو عليه، وهي أيضًا التي تسبّب له التناقض أحيانًا، فمثلًا رغبته في الاصطياد، ثم جعله الصيد رحيمًا، وتقديسه لتلك الحيوانات لمجرد أنه قتلها، وعلى هذا القياس تأتي حاجة الإنسان للرّبِّ، ثم نفيه، أو استبداله بما يرضي قلبه، أو عقله، متناسيًا بعد هذا كلّه خلقه المعقّد، ويزعم أنه كان خليَّةً واحدة مع الموز والأناناس لمجرد التشابه في الحمض النووي!

كما في حوار الزميلين دار النقاش، ثم عاد حول أن الاعتقاد

بالرَّبّ باعتباره حاجة في نفوس البشر يحتاج إليها الضعيف، وينافيها المنطق، فجاء على السياق نفسه سؤال الحاجة للماء: أوليس الماء موجودًا، وعلى مستوى المشاعر الحب هو حاجة، وفي نطاق أوسع العبادة حاجة، فإذا غُلِّقت كلّ الأبواب هُرِعَ البشر يناجون ربهم دون شعور، وإن لم تكن العبادة حاجة لماذا هي موجودة في كلّ النفوس الغنية والفقيرة؛ أوليس المال يغني عن السؤال؟ المثقفة والجاهلة؛ أوليس العلم يمحو الشك، والأمثلة كثيرة. ثم إن الموقف يحتاج إلى صانع من وجهة نظر العاقل، واللوحة إلى ريشة رسام، فكيف للكون أن ينفجر دون أن يكون له صانع ذو إمكان؟..

"الإنسان مؤمن بما يعقل، وعلى هذا الأساس، كان لا بُدّ من خوض تجربة الشَّكّ من أجل الوصول إلى اليقين، وذلك يتطلّب رحلة في عالم الصّراع الفكريّ الداخليّ".

محمد حسين فضل الله.

الترتيلة الرابعة (الجزء الثاني)

ميث تنظر إلى ودن بتعجب:

– كلام الفتى غير منطقي!

– في ماذا؟

– الشك والكفر عند كلِّ الأديان.

– ليس عن الأديان، بل عند من يتعصَّب لها، وما أجمل الشَّكّ إن أدَّى إلى اليقين! وما أقبح كتمان الشك إن أودى بصاحبه إلى نكران كل شيء هو فيه!

– من المفترض أن منطق الشك في أغلب الأحيان يؤدِّي إلى التفكر، وهذا ما تسعى إليه الأديان.

"لا إيمان في عمق الفكر، وامتداده بدون حوار.. يبدأ في حديث الإنسان مع ذاته في حركة الفكر الداخليّ".

محمد حسين فضل الله

التفكر في الكون، وما يحويه يدعو إلى أن تجوب السماء، وما فوقها. والأرض، وما تحتها، ثم تطَّوفُ بالمشرق والمغرب، وإن تعجبت، وستتعجب أدّى بك ذلك إلى الإيمان بوجود الخالق.. ثم يبقى السؤال إن وجد الله، فهل الدين حقيقة، أم هو من صنع محبٍّ لله والفضائل الحميدة؟

هي قالت لصاحبها بعد أن عجزت في أن تردَّ مسألة وجود الخالق مقتبسةً عن سيد الملحدين دوكينز: "يا صديقي قد قالها دوكينز قبلي الإيمان بالرب، والدين وجهان لعملة واحدة، فإن صدقت

بوجود الله، ثم قلبت العملة سوف لن أجد رسمة واضحة، فلا دينَ واضحٌ في عصرنا. إنما تيارات تتبع ما تملى عليها الرغبات، وهناك يا صديقي لا فائدة من عملة نصفها تالف، تعال نؤمن بالله، ثم لا ترى لنا دينًا، ونمضي كأن هذا اليوم لم يحدث"!

ودن يعلم جيّدًا أن الحسناء خائفة من أن يجرَّها الحديث للبحث في الأديان، فهي تربَّتْ في أسرة متدينة، ولكن عنيفة، اضطهدتها، وعنّفتها حتى غادرت الجامعة وخلفت كلَّ شيءٍ وراءها دون أن تلتفت فيما ذلك كان صلوات الأحد والأعياد، يوم الجمعة وشهر الصيام، السبت وتعاليم التلمود — أيًّا كان دينها، فالعنف لا ينتمي له □هكذا علق ودن وهو يشرح لميث ماضي الفتاة.

في تلك الزاوية من المختبر كان الحديث قد بدأ يأخذ منحى الأديان، ولكن إرادة الطبيعة لم ترد ذلك، فالشمس آذنت بالغروب نهاية الحديث، والحاجب يقف عند بابهما يريد أن ينهي عمله، فابتسما له يعتذران وهمَّ كلٌّ منهما يجمع أغراضه وقد تثاقلت عليه أفكاره، لا تدري هي أتبكي إلى الله؟ أم تستعين على الليل بقراءة الكتب ومشاهدة الأفلام؟ أما هو، فيتفكَّر بأمر آخرته؛ لأنه أيقن بالرّبِّ، ولكن كل تلك الأديان على وشك أن تمزقه، لا يدري أي الأحزاب هي الأصح، والكل ينسب نفسه للرب.. عند الباب كان عناق الوداع، وهناك همسة في أذنه: "الدكتور فرويد يقول إن الدين هو الظاهرة الأكثر تعقيدًا في الحضارة؛ لذا لا بأس فيما تمر فيه المهم أن تجد نفسك، لا غيرك"، ثم سبقته تسابق أفكارها أكثر من أيِّ شيء للمخرج، لا تريد منه تعليقًا يشوِّشها أكثر، ولا تريد أن تستمع إلى نفسها، وهي تتحدث في

هذا الموضوع أكثر؛ كي لا تناقض أحاسيسها، فتُهلك نفسها، ولكنها لم تكن تعلم أن زمليها لا يملك لها إجابة، وكانت العناية له بأن تتركه قبل أن ترهقه أكثر؛ لأنه أيضًا يرى أنّ فرويد كان محقًّا، ولكن ما أُثبت من كل محاولات فرويد أن شرعية الدين لا يمكن أثباتها، أو العكس بتحليل علمي..

خلا المكان، وانطفأت الأنوار ولم يبقَ إلَّا ميث يصحبها ودن، هي ظنَّت أنهما سينتظران شروق الغد، ولكنه كان يحمل لها رحلة أخرى في مدينة أخرى بعيدًا عن الضوضاء، والحداثة.. أخذ بيدها، وأطلق بين الغيوم، كان الجوُّ صحوًا، فكانت ترى هي النجوم تتلألأ في السماء كأنها حبَّات ألماس متناثرة، تتراقص يمينًا وشمالًا، فترى ضوءها يشعّ برهة، ويبتعد برهة أخرى إلى أن أصبحت في عيون ميث السماء تبتعد، والأرض تقترب. هي من رحلتها هوت الولوج، ولكن أصبحت لا تكره النزول؛ لأنه يجلب لها معرفة، وسكينة.. هما هناك بعيدًا عن كلّ الأعين والمكان مضاءٌ فقط من السماء، ومن قَبَس بعيد.. الجوّ كان باردًا قليلًا لا يشعر به ودن، ولا تحسّه ميث إلَّا أنهما يعلمانه..

- أين نحن؟
- ماذا ترين؟
- لا شيء سوى الرمال.. أعلم أننا في صحراء، ولكن لماذا؟
- أين كنت تتخيلين أننا سنذهب؟
- إلى مكان نرى فيه طقوس عبادات مختلفة.
- وها نحن فيه.

- كيف؟

ودن أشار إلى ميث بأن تمْشِيَ معه في صمت لدقائق من الزمن لغاية في نفسه..

أراد من الخلاء أن يجلب لها السكينة، أن تكف عن الأسئلة، وتتأمل. ثم بعد أن شعر بهدوء روحها قال: "هل تعلمين لماذا يلجأ الإنسان للخلاء إذا أدار التعبُّد، والتأمل؟" ولم يكن سؤالًا حقيقيًّا، بل مقدمة لكلام طويل سيجعلها تتفكر بصفاءٍ أكثر.. ثم قال "إن بني جنسك يا ميث أغلبهم غافلون عن شيءٍ يطبِّقونه، ولكن لا يعونه، الله موجود في كلِّ مكان، ورحلة الخلاء ليست للابتعاد عن المُلْهيات، أو البحث عن الله، بل لإيجاد الإنسانية التي تكمن فيكم، ولا تظهر؛ لأنكم أقصيتموها، فخذي على سبيل المثال لا الحصر، نبي الرب "موسى"، هو لم يُؤْتَ الرسالة إلَّا من بعد أن عمل ما يقارب العشر سنين بعيدًا عن كلّ شيءٍ إلّا نفسه والبشر الذين حوله.. كانوا أناسًا يعيشون إنسانيتهم، والنبي الذي نطق في المهد "عيسى ابن مريم" كانت الأجواء مهيّأةً له، فأمه سيدة جليلة، بل وقدّيسة، وعاش مع شيخ نبي، وكان هناك "يحيى" النبي أخًا له، والصالحون الذين كانوا قد تعلموا الإنسانية من هؤلاء. وهناك النبي "محمد".. خلا محيطه من الإنسانية، فراح يلجأ إلى الغار، ثم هناك جاءته الرسالة السماوية.. وحين أقول الإنسانية، فأنا لا أعني فقط أن تكون رحيمًا، أو محبًّا، أنا أعني أن تعي بأنك منك أنت تتبع كلّ الخصال الحسنة، وأن كلّ الناس بكلّ أعراقهم إخوانٌ لك.. أن تصدق أنك خلقت للجنة، وأن الله يحبك، ثم أنت مَنْ تقرر كيف تسير هذه العلاقة.. أن تؤمن

بأن الخطاب به لا يحكمه، أو يحدُّه شيء..

اعلمي يا ميث أن الأديان كلها تتشابه ،ومن غيَّرها هم بنو جنسك؛ لأنهم أخذوها تجارة أيهم يكسب أتباعًا أكثر، وأيهم يعتلي عرش الحق الذي ابتدعوه هم، وفي ذلك المسير اشتاقوا لتراثهم، فأضافوه لأديانهم ليتنافس أهل الدين الواحد كل بتراثه كأنهم بعثوا الدين القديم، كاعتقاد المصريين القدماء بالثالوث الإلهي زواياه.. إيزيس، وابنها حورس، وزوجها أوزير الذي أنجبت منه دون مضاجعة، أو كاعتقادات البابليين ببعل.. (ضحك ودن ثم قال) أذكر ممَّا سمعنا من إخناتون في نشيده (إنك أنت الذي يمدّهم بكلّ ما يحتاجون، ويحصل كلّ شخص على طعامه عندما تبزغ في الأفق الشرقي تملأ الأرض بجمالك) ثم فجأة سمعنا بعد سنين مزمور ١٠٤: ٢٥ – ٣٠ بعد أن غُيّر: (كلها إيَّاك تترجّى لترزقها قوتها في حينه تعطيها فتلتقط، تفتح يدك فتشبع خيرًا. ترسل روحك، فتخلق، وتجدّد وجه الأرض)، فحزن بعض بني الجن وسعد آخرون، والأمثلة على ذلك كثيرة، وإن لم يحرف الكتاب في أديان، ولكن حرفت الأفعال، فهناك المشي على الجمر الذي تشارك فيه ثلاثة مذاهب أحدها وثني، والثاني مسيحي، والثالث محمدي.. وإن حدثتكِ يا ميث عن كلّ الإدخالات في كل الأديان لما اتبعتِ دينًا، ولكن إن خليت خربت، وإنك سوف تجدين من كلّ الفرق الذي لا زال في منظور دينه القويم، في كل الأديان وفي كل مذاهب هذه الأديان، ولكن يعتم عليهم؛ لأن من مصلحة التجارة التي يمارسونها أن يشوِّهوا صورة كل الأديان إلَّا دينهم..

ولهذا يا ميث عليك قبل البحث في الدين أن تبحثي في إنسانيتكِ، وأن تجدي الإنسان الذي يسكن روحك، وإن وجدته هناك ستجدين الحقيقة أينما كانت بكل سهولة، وستتعلمين أن تجدي من كلّ دين الصواب، وفي كلّ مذهب وطريق أيضًا ما يحمله من حقيقة.. ولأكون دقيقًا معكِ لا يوجد طريقٌ صحيح تمامًا، ولا طريق خاطئ تمامًا".

ميث ممَّا قال ودن هي في حيرة أهو وسواس يريد أن يبعدها عن الدين، وكلّ الأديان؟ أم هو ومضة نور لتجد طريقها للصبوحات، فترجلت عن صمتها؛ كي لا تعيش الشك في قلبها مجدَّدًا "لماذا كل هذا الاختلاف يا ودن؟"، فردّ عليها وهو ينظر في الأفق بعيدًا عنها "اختلافهم نتيجة اختيارهم"، تنهّدت ميث من جوابه تسأل بإحباط: "أهو ابتلاء؟" هنا نظر ودن إليها كأنه هو المُحْبَط من إجاباتها، وكأنها لم تعِشْ شيئًا ممَّا عاشته معه..

"لا ميث الابتلاء نتيجة وليس سببًا.. يا ميث الأصل في الوجود الحب، فبني آدم مكرم، ومفضّل وهو خلق؛ لأن الله أحبّه، واصطفاه، ثم خيّره. فحياته كلها مخيّرة. كما أن الوجود نعمة مقابل العدم..ألا يكفي الوجود لإثبات الحب، وأقول والمثال ناقص الأب أنجب؛ لأنه أحب ابنه، والله لم يلد ولم يولد، ما بالك يا ميث! إني قلت لكِ وضربت المثل في الأنبياء، والإنسانية، والخلق قبل طريق العبادة، وما الدين إلّا الحب، وما الدين إلّا حسن المعاملة، والخلق الحسن."

ميث ابتسمت له، ثم دندنت وهي تنظر إلى ودن مرة أخرى "أيها المراؤون.. توقفوا عن الدفاع عن الله بقتل الإنسان، ودافعوا عن

الإنسان؛ كي يتمكن من التعرف إلى الله". هناك ابتسم لها ودن، فهي قد فهمت الكلام: "صدقتِ، وصدق جبران وشيطانته" ثم راح يمشي ناحية القبس تتبعه ميث، ولكنه في منتصف طريقه وقف.. تأمّل، ثم أخذ منحنًى آخر، فاستغربت منه ميث؛ لذا تحركت لتقف أمامه: "لماذا نتحرك باتّجاهات معوجّة، والوجهة معلومة؟" هناك شعّت عيناه، ولو كان له حاجبان لارتفع الأيمن منهما، ثم ابتسم ابتسامة المنتصر ليقول:

"ووهجة الأديان هي الله.. أنتِ رأيتِ طريقًا تظنينه مختصرًا، وأنا رأيت طريقًا آخر أظنه أكثر أمانًا لنا، ولكلّ طريقته، فلماذا الإقصاء؟.. افهمي يا ميث إن ما أضاع الأديان، وشتَّتَ المذاهب ليس إلَّا عملية الإقصاء الديني الذي يعيشه البشر، فإن قال -مخالفًا لهم- ما يكرهون، كفّروه وأقْصَوْه.. هل تعلمين أن نبيَّ الإسلام قال: "لا تكفر أحدًا من أهل القِبْلة بذنب، ولو عَمِلَ الكبائر"، وهم من أشدِّ الأمم اقتتالًا حتى صور للعالم أنهم دين حرب، وجَوْر، ولكن إن تأملتِ العلوم المهمّة عن سُنَّتِهم وشيعتهم لرايتي الرحمة والعلم. ناهيك عن الحكمة، وكيف أنهم هم الذين استحدثوا البحث العلمي، فنقلوا العالم من الزمن الحسِّي إلى الزمن العقلي، ولو جمعتِ ما جاء في الجهتين لوجدتِ طريقًا إلى الله يجمع كلّ الأديان السماوية.. أما حال بعضهم الذي لا يرى إلَّا أن يكون الصحيح بكلّ ما يبتدعه، وينصّه، ويرى أقرانه أعداءً إن أشهروا في وجهه كلمةً نكَّلَ فيهم، ليس هم فقط إنما أيضًا الديانات الأخرى كأن المسيح لم يقل: "من ضربك على خدِّك، فاعرض له الآخر" هذه المقولة الذي كان يقصد في التسامح

والتفهّم، أن لا يعتدي الأخ على أخيه، ولكن الزمن تقلب وأصبحت تؤخذ على أنها ذلٌّ، واستسلام..

ميث، لا شيءَ أُنْزِلَ دون معنى، فحين جاءت تحية الإسلام السلام، واليهودية شالوم كانت لا للتباهي بها، بل للسلم للإنسانية ليقرّ مَنْ يقولها لخالقه بأنّي يا الله سِلْمٌ لهذا الشخص سوف لن أتعرّض لأمانه، وإن بدر منه العكس، فهو ينقض ميثاقه مع ربه.. لو تأمَّل البشر فيما أنزل لتبدّل كلّ حالهم، ولانطفأت الفتنة بينهم".

كلام ودن يدفع ميث للتحقق والبحث في كلِّ ما يقول؛ لترى بنفسها أين كان المصدر وكيف بدأت الفتن، وكيف توالت الفتن على الأديان.. كيف أصبح الدين كالرداء الذي يجلب العظمة لمرتديه، فيتسابق الناس لنزعه من على أكتاف بعضهم، فيؤخذ الحق من أهله، ويلوث الرداء، ثم يتمزّق فيرقع إلى أن يتحوَّل إلى رداءٍ لا هيبةَ فيه، أو له..

هنا خطر لميث سؤال أرادت أن تعرفه من ودن، ولكنها تردَّدت كثيرًا قبل أن تسأله وتأتأت فيه: "ودن، هل لي بسؤال؟" حتى أنها قالتها بخمس طرق مختلفة "وتن أقصد ودن، هل لي أن أقول، أعني أسأل عن أمر، أو شيء بسيط، أو ربما ماذا كان أصل شيء أعني الأشياء التي كنا نتحدث فيها.." بعدها حين أحست بوجه ودن وكأنه سيضحك عليها، أو سيتركها قالت دفعة واحدة "ودن هل لي بسؤال".. تقدم ودن ناحيتها، ووقف أمامها، وقال بصوت متّزن: "لن يضرَّكِ أن تعرفي أي دين أنا أتبع.. اتبعي ما ترينه الأقرب لإنسانيتكِ، ولطريق المعبود" هناك أحبطت ميث فقالت باستنكار "أنت تتحدث

عن كلّ الأديان، وتستشهد بكلِّ الأديان، ثم لا تخبرني من خبرتك أيّ طريقٍ يجب أن أسلك". قال لها:

– نعم، فإن قلت لكِ أي طريق يجب أن تسلكي ناقضت كلّ الكلام الذي قلته قبلها وكل الرحلات التي رحلنا لها وبها... سمعتِ مني. الآن اذهبي، وابحثي بنفسكِ واستفتي قلبكِ وعقلكِ.. لا أريد منكِ أن تكوني تابعة.

– لماذا هذه الرحلة؟ من أسسها وفي هذا المكان؟ (أرادت تغيير الموضوع؛ كي لا تغضب منه، فهي منذ قريب استعادته، ولا تريد أن يبتعد عنها في أيِّ وقت قريب).

– أنتِ هنا لأنكِ ستذهبين إلى مكان عظيم بعد هذا، وسأكون أنا مَنْ سيأخذك إلى هناك، ولو كان باستطاعتي ألَّا أفعل سوف لن أفعل، ولكن لا سلطان لي.. أردت قبلها أن تكوني قوية، فتركتك في المكتبة، وأردتِّ أن تجدي ربَّك، فأخذتك إلى الجامعة وهنا.. ميث ما سترينه سيكون عظيمًا أريد منكِ أن تتسلّحي بالتقوى، وإلَّا تهتِ كما تاه عجوز المكتبة من قبل.

– إلى أين سنذهب؟

– إلى حيث تنتهي الرحلة، وتبدأ.. ألم ترغبي في أن تعرفي لماذا يحدث معكِ ما يحدث؟

– نعم.. ولكنك تبدو خائفًا، وأنا لا أريد ما يخيفك.

– لا بأس هذه هي الطريقة المثلى.. فقط عديني أن يكون نور الرب فيكِ، واسمه على لسانك، وفي القلب إنسانيتكِ.

– ألن نذهب إلى القبس؟

– بلى سنذهب، ولكنه ليس كما تتصورين، فهو ليس كالقبس الذي رآه موسى، أو شيء من قبيله.

– إذًا ما هو؟!

– ذاكرتك المَمْحُوّة.

– ماذا (وكأنها بدأت ترتعب، ولا تريد أن تصدق هي ما يقوله هو).

– دعيني أمحُ التعويذة التي ألقيتها أوَّلًا، ثم اركضي إليها إنْ شئتِ.

– تعويذة ماذا أيضًا.. (بخوف وإحباط قالتها).

– لم أرد لأحد من الجِنّ، أو الإنس أن يسمع حديثنا هذا.

كأنَّ تلألؤًا حدث في السماء، وهالة تحيط في المكان بدأت تتلاشى، هذا هو البَرَد الذي لم تحس فيه.. ترى رياحه، وها هي الرمال تتحرك بفعلها.. إذا كانت الهالات التي يتحدثون عنها حالات محسوسة. ودن من أمامها، وأعلى الهضبة هناك ذاكرتها التي سُلِبَتْ منها أمامها، وهذه المرة تتقدّم هي، وودن يمشي وراءها كأميرة تسير في موكبٍ ستُنَصَّبُ في نهايته على العرش ملكة...

الترتيلة الخامسة

اختلف أهل العلم لدى البشر في سبب تسمية الإنسان إنسانًا، فذهبوا إلى خمسة تفاسير مختلفة، وكان أولها : "لأنه عَهِدَ إليه، فنسي"..

ميث اقتربت من القبس أعلى الهضبة يتبعها ودن على استحياء - الخطوات ثقيلة أما المشي، فظاهره خفيف، نبضها يتسارع لسبب غير معلوم لها على أجهزة المستشفى التي ترقبها الممرضة هناك عند جسدها تظن أنها على وشك أن تفقد هذا الجسد الذي يرقد أمامها لسبب غير معلوم طبِّيًّا.. مجدّدًا هناك أعلى الهضبة، حيث لم يكن القبس إلَّا بلّورة مضيئة تمامًا كحال النجوم التي رأتها من قبل في السماء.. التفتت إلى ودن حائرة وعلى وجهها بعض علامات الاضطراب، تنظر بعين يخيّل لمن يراها بأنها ناعسة.

- ماذا الآن؟

- المسي البلورة... "سكت قليلًا، ثم أردف بتردُّد": المسيها بقلب له يقين..

هزَّ رأسه كأنه يذكرها بحديث الإيمان، يريد أن يقول لها ما سترينه سيكون عظيمًا، ففهمت هي الكلام، وأشارت بوجهها أي نعم، تبعتها ابتسامة خفيفة تريد أن تطمئنه بها..

ووضعت يدها على السطح الذي يخيَّل للرائي أنه زجاجي..

ولدت ميث في أول الشهور القمرية لدى الجن، والذي يسمَّى لدى العرب "رجب".. وفي هذا الشهر تتجدد المواثيق بين

الجن والإنس... تبدأ علاقات، وتنتهي أخرى وتُقدّم القرابين، وتوزّع الحلوى، وتفوح رائحة البخور والحِنَّاء. وفي إحدى قبائل الجن كانت تقف "الإسكندر" العظيمة تتأمل السماء تنتظر الشروق كأن حدثًا على وشك أن يقع، وما أن أشرقت الشمس وبان نور اليوم الجديد نادت أحد توابعها، واختارت منهم من يقربها بالدم، تقدَّم ذاك الفتى المُهاب بين القوم لينصدم بالتكليف الجديد إلَّا أنه لا أمر له بين يد الكبير إلَّا السمع والطاعة. طار إلى السماء دون أن يفكر أو يتفكر، ثمَّ حلّ حيث المهمة في بيت قروي. المرأة تصيح في أمها والعرق يتصبب من وجهها:

- أرجوكِ يا أماه أريد أن ألد في المستوصف على يد مَنْ تمرَّس في الطب.

- حسم النقاش هذا الصبي سيولد على يد القابلة في هذا المنزل الذي ولدت أنا فيه .

- ومن قال لك إنه صبي.. حتى الطبيبة لم تستطع أن تعرف.

- وهذا ما يجعل من شأنه عظيمًا، النبوءات قالت لي إنه ذكر عظيم.

- أدعو الرب أن يكون كموسى لفرعون، أو كالسيدة مريم لقومها.

أمها لم تسمع دعاء ابنتها وقت طَلْقِها؛ لأنها كانت مشغولة تستقبل القابلة توصيها خيرًا بالوريث.. ووراء القابلة دخل الأب، وهو يلهث من التعب، جاء مسرعًا خشية أن يفوته الإمساك بيد زوجته، واستقبال الوليد...

ذلك الجِنِّيّ المُهاب يعلم من هي هذه السيدة التي تنتظر لها وريثًا، ويعلم أيضًا من هو أب هذا الوليد الذي هو نفسه لا يعلم بأن له جَدًّا من الجِنّ يكون بينه وبين السيدة الإسكندر نسب، أما السيدة الإنسيّة هذه، فلها نسبٌ طويلٌ.. توارث السحر، وأمورًا عظامًا، فمنذ أكثر عن ثلاثة قرون كان جدُّها هو مَنْ يعلِّم الجِنّ السّحر، ومن تحت يده تخرَّج عظماء سَحَرَة الجِنّ، ومنه أخذت الجِنّ على نفسها ميثاق أن تحترم هذه العائلة، ولكن كان ممّا جاء عليهم أنهم كانوا لا يستطيعون أن يلدوا إلَّا مولدين لكل جيل، إن قرر أحدهم أن يسلك غير طريق العائلة قُتل في شبابه؛ لتكون رسالة للآخر أن "كن ملكًا، أو تموت"، والواقع هو أنه ليس لهم، أو له أخيار؛ كي لا ينقطع النسل وكان فعلًا يموت في كلّ جيل أحد الاثنين، وإن كنا مؤهّلين اختار الجِنّ بينهما ويتركون، ولا يتركون أن يقرر الآخر مصيره وحده، فليس أن يبتعد، فهو إمَا ميت في حادث، أو هو غريق.

وفي تلك الغرفة حتى القابلة كان قد تتلمذت في بيت السحر، ولم يكن هناك من بريءٍ إلَّا الزوج الذي ليس على دراية بنَسَبِهِ، وأمّا أولئك المترقّبون خارجًا، فهم في ظلالٍ يعمهون.

وما كانت إلَّا ساعة، وإذا بالمولود ينزل بأقلّ ألم، وبخفّة رحيمة بأمّه، وتهلَّل المنتظرون بصوت بكاء الطفل، واسوَدَّ وجه القابلة، والسيدة من ورائها، فأخاف ذلك الأم الحديثة بشدة، وبصوت مبحوح، وألم واضح قال: "ما بها الصغيرة هل هي بخير"، فزاد العَجَب على وجه الجَدّة، فقالت بحنق: "كيف علمتِ بأنها فتاة وحتى الولادة كانت ولادة صبيان" ابتسمت الأم، وأغمضت عينيها لتنام. في

تلك الأثناء رفضت القابلة تغسيل الطفلة، فاستُدْعِيَت الممرضةُ من المستوصف، وكانت السيدة الجدة قد رحلت قبل أن تحمل الحفيدة بين ذراعيها، ولم يبقَ في المكان المزدحم إلّا الوالدان والطفلة والجِنّيّ المُهاب "ودن". في ذلك اليوم سُمِّيَت الطفلة إقا - حواء باللغة العربية؛ والأمل يسكن الأم بأن تكون هي الطفلة بدايةً لعصر جميل.. كل شيءٍ بدا طبيعيًّا للغاية، إلّا وجود ودن؛ لأن ذلك الوجود أخذ ينجذب للطفلة الصغيرة يراقب كلّ حركاتها، وسكونها؛ ولأن الأطفال لهم بصيرة، فكانت هي تراه، فترتاح لوجوده.. وتبكي إذا غاب عن ناظريها، فيشدّه الصوت أينما ذهب يلبّيها، وتهدأ هي.

أربعون يومًا مضوا كلمح البصر، وأخذت الأم تستعدّ للرحيل، تريد العودة بابنتها إلى المدينة بعيدًا عن العالم التي عاشته هي، تعلم في قرارة نفسها أن غياب أمها سببه وجودها في الخلوة، وأن قرار الخلوة سيطبّق مهما كان الثمن الذي قد يكلّفها حياتها، وكلّ عائلتها الصغيرة.. في عصر ذلك اليوم، وحين كانت الأم على وشك أن تغلق الباب لترحل للأبد، رأت غبرةً تتّجه إليها، تآكلت روحها كأنها أحسّت بالخطر، وبدأت قرون ودن بالظهور؛ لأن مرة في حضرة الطفلة، فابتسمت لهما، وراحت تراقص يديها، ورجليها، وقد أثلج ذلك صدر ودن إلّا أن علمه بأن خطرًا ما قادمًا منع ابتسامته. بين تلك الغبرة ظهرت السيدة الجدة تمشي بكلِّ هدوء تعلم بأنهم لم يهربوا منها، اقتربت ونادت ابنتها أن تأتي بالطفلة:

- بلغني أن اسمها إقا.

- نعم صحيح.

- سلِّميها للمُرَبِّية .

- لن يكون لكِ هذا! (بحزم ممزوج بقلق).

- لا تكوني غبية، فقد أُخبرت أن للطفلة شأنًا عند عائلة من الجن كما أن أمرًا سيغير حياتها بعد عقدين ونيِّف من الزمن، وأريد أن أكون المسيطر على الأمور.

- هل تستمعين لنفسك حين تتحدثين؟! هل لك أيّ إحساس على الإطلاق؟!.. (ثم بدأت تصرخ، وبصرختها بدأ بكاء إقا) هذه ابنتي، حفيدتك.. إن كان لذلك أيّ معنى لك!! أقسم برب السماء، وراجم الشياطين بأنني لن أتركها لكِ، وإن كلف ذلك خروج روحي.

كادت السيدة الجَدّة أن تردّ، لولا أن ودن بدأ يحدث رياحًا في الأجواء، وتحصينًا كيوم هو وميث في الصحراء، وتشكَّل للأم يأمرها بأن تأخذ الطفلة، وترحل مع زوجها. بسرعة والهلع، ورباطة الجأش تسكن روحها مع القليل من الأمل حملت طفلتها، وانطلقت إلى السيارة لتنطلق بسرعة، ولم يكن سهلًا على ودن أن يبقي هذه الهالة، فهناك سحرةٌ وجِنّ في الطرف المقابل يبطلون هالته، ويضعفون قوّته. وذلك ما جعل الجدة أكثر إصرارًا على أن تستحوذ على الصغيرة متسائلةً: أية قوة تمتلكها تلك الصغيرة لفعل كلّ هذا في وجه الساحرة العظيمة ذات النسب العظيم؟ صمود ودن طال، ولكن لم يكن كافيًا لتختفي السيارة عن أثر أولئك السحرة. أخيرًا وقع ودن على الأرض مغشيًّا عليه.. تجاوزه السحرة غير آبهين، كأنه بلا وجود، ولحقوا بالسيارة! وقف أحد الجِنّ أمامها؛ كي يخيفهم للتوقُّف، فلم يعبؤوا به، ومَرّوا من خلاله - الخالق وحده من كان يعلم كيف كانت مشاعرهم داخل تلك

السيارة، فلا إنْسِيَّ، ولا جِنِّيَّ استطاع أن يستَرِقَ السمع؛ لأن الأم كانت تقرأ كلّ ما تعلمته عن التحصين، والحفظ من كلّ المِلل، وكلّ الطوائف - خيرها وشرها- وهذا ما أغضب أُمها، فأمرت بأن تقلب السيارة، وهناك على المنحنى الجبلي في فصل الخريف حين كان ظهور الأزهار ظهورًا باستحياء، انقلبت السيارة وفي داخلها احتضنت الأم صغيرتها للمرة الأخيرة، المكان كان هادئًا، وهكذا كان الناس أيضًا لا صراخ، ولا توسُّل إلَّا صوت الارتطام يمينًا، وشمالًا، والغرض منه أن تلقى الطفلة من السيارة كي يستطيعوا حَمْلها، إلّا أن ذلك لم يحدث، فاستمر الارتطام، وعلى صوته خافت الصغيرة، وبدأت بالبكاء، ومن كان من الخلق غير ودن يستثار بهذا الصوت، ولا يجد إلَّا أن يلبّي النداء، فحمل نفسه متناسيًا كلّ الألم، فطار والنيران تتناثر منه جهة إقا، وما إن وصل حتى دفع بكلّ السحر بعيدًا عن السيارة، فوقعت السيارة لترتطم الارتطام الأخير.. ولم يكن بهدوء أبدًا؛ لأن ودن لم يستطع التقاطها، والجدة أعلى الجبل تراقب.. اقترب ودن من السيارة، وكأن الإله سمح له بأنْ يخترق التحصين لحُسْن نِيَّتِه رأى الأم تلتقط أنفاسها الأخيرة وهي تقول: "إلهي هي أمانتي عندك" بصوت متقطع، ثم انقطع لكن الدماء لا تزال تحاول أن تدفن ملامح وجهها قبل أن تغطيها التراب، وعلى مقعد السائق كان الأب يصارع نفسه، فحمضه النووي الإنسي يتصارح مع الجِنِّي الذي يواجهه لأول مرة في داخله، وتلك غريزة البقاء، وكأنَّ جلده بدأ بالتغيّر، يحاول أن يصارع التغيّر بالصراخ، ولا صوت له، وبين جسد الأم التي تنام كالملائكة، والأب الذي يصارع نفسه الشيطانية كانت إقا تلوح لودن

بيديها ليحملها، فانتبه الأب لذلك، وفوجئ لوجوده وخلقته، فتشكّل ودن لأول مرة على ذلك الجبل، وزاد ذلك من خوف الأب، وراح يحاول أن يوقِظَ زوجته ولكنها لم تكن تجيب، هناك أمسك ودن بيده:

- سيدي لقد ماتت وإن كان لحياة ابنتك أي معنى يجب أن تذهب الآن.

ولأنه لم يكن يقوى على الكلام، فقط أشار بوجهه "كيف"، والخوف يسكنه والألم يعصره، فما استطاع ودن أن يشرح له؛ لذا نفخ في وجهه، وأرسله للنوم، ثم حمله على ظهره، وجعل الطفلة بين يديه، وطار بهما بعيدًا، وحين فتح عينيه الأب كان ممدّدًا على سرير المشفى وحيدًا ينظر يمينًا، وشمالًا حاول استيعاب الموقف، وحين استوعب أنه بعيدٌ عن زوجته، وابنته جلس مفزوعًا يصرخ باسميهما، فدخلت الممرضة على صراخه، وطلب منه أن يهدأ، ولكنه ظل يسألها والدموع تنهمل كقطر المطر لزوجته وابنته، وعلى هذه الحال دخل رجل مهيب، حسن الوجه غليظ الشعر، وطويل القامة أسمر اللون، أما عيناه فواسعتان، وخشمه كالسيف، يهاب محيّاه الرجال، وتنجذب له كلّ النساء - الغريب أن هذه الملامح كلها قريبةٌ من أبي إڤا الذي هو جالس على السرير - طلب الرجل من الممرضة الانصراف، وما كان لها إلَّا أن تنصاع له، بعد خروجها جلس، وهو يتأمّل الاستغراب على وجه الأب:

- عزيز أنا قريب لك.

- ليس لي أقارب، ولا يهمّني ذلك الآن (وتمنع دموعه كبرياء الرجل في لحظة، ثم تخونه الأُبُوّة، والحب في أخرى).

- عزيز أنا من أسعفك إلى هنا.
- حقًّا! أين ابنتي وزوجتي؟
- ابنتك بخير وهي لَدَى المُرَبِّية.
- أية مُرَبِّية؟
- أما زوجتك.. فأنا آسف.
- ماذا؟!! أرجوك لا تقل ذلك.. هي قوية .

وفي القول الثاني لسبب تسمية الإنسان بهذا الاسم: اشتقاق الإنسان من الأُنسِ يُقَال للإنسانِ أَيْضًا أُنْسان أُنْسٌ بالحَقّ، وأُنْسٌ بالخَلْق.

وما سُمّي الإنسان إلَّا لأنسه ... ولا القلب إلّا أنه يتقلّبُ

ذاك الغريب هو ودن الذي أنزل عزيزًا إلى سفح الجبل، وأخذ إڤا إلى حيث قبيلته، ثم عاد ليحمل أمها؛ كي لا يمثل بها إلى حين يستيقظ زوجها، ويدفنها.. جعل الأمر يبدو كحادث سيارة، وهو الغريب الذي مَرّ، وأبلغ الشرطة، ولن تكون المرة الأخيرة التي يبلغ فيها ودن عن حادث على نفس الطريق، لا ولا آخر حادث تتسبّب به تلك السيدة الجدة. مثل ودن الحادثة كأن الزوجة لم تستطع الخروج والزوج صارع للحياة حتى أُغْمِيَ عليه، سار كل شيء وفق قوانين البشر إلا أن عزيزًا بدأ بالتحوّل المفاجئ، فكان على ودن إنقاذ قريبه مرة أخرى، وأن يشرح له تلك القصة المحظورة حول تزاوج الانس والجن، وكيف يمكن للطبيعة أن تتغلب على أخرى ومسببات ذلك. عزيز كان منبهرًا من كل ما يسمع، وشيء في داخله يخبره بأنّ هذا الرجل لا

يكذب، وهو لم يفقد عقله من الحادث، فالأدلة واضحة، ولا يستطيع نكرانها، قاطع عزيز الكلام الذي يسمع:

- والآن ماذا؟ هل أختار بين الطبيعتين؟

- ليس بهذه السهولة، فالجِنُّ هو جدك ليس أحد والديك؛ لذا سيكون صعبًا عليك العيش في عالم الجِنِّ، فأنت لا تنتمي إليه، والذي قد يشفع لك قدر جدك الكبير بين قبائل الجن.

-أريد أن أكون جِنِّيًّا لأحمِيَ ابنتي، وأنتقم لزوجتي.

-عليك حماية نفسك من الجن الحاقدين على المختلطين، وقبل ذلك جسدك الذي يصارع نفسه!!

عزيز أنا لا أريد ترك ابنتك لتتربَّى عند غيرك من الإنس، أو حتى الجن! سأعيدها لك غدًا صباحًا، وأريدك أن ترحل من هذا البلد، وتغيّر اسم الصغيرة حتى لا يتبعوها..

- آه إڤا، كأنّ أمكِ كانت هي الساحرة الحق، وليس أحد من نسل خالكِ.

عزيز قال هذه الجملة؛ لأنه سمع من زوجته صباح يوم موتها وصيّتها "حبيبي عزيز إن حدث لي شيء لا تجعل لاسمي ذكرًا، بل سمّني إڤا أما اسم إڤا الحقيقي هو في القلادة التي سترسلها "الإسكندر"، ولا أريد أن تعلّقَ على كلامي، فصوتي محجوب عن الخلق، أما أنت، فلا، وأرجوك ثقْ بالخالق، لا بالخَلْق، فلولا أنني وجدت الرب لكنت الساحرة العظمى".. هي كانت تعلم. ولتلك الوصية كُتب على شاهد قبرها بعد جنازة متواضعة "هنا ترقد إڤا"، وقد حضر من الجِنِّ مع كان لها صديق وتلميذ، وأحاطوا القبر بتعويذة حتى لا يُنبش

من الجِنِّ، ثمّ تفرَّق الجميع، وبَقِيَ قلب عزيز عنده محبوبته، لا يعلم كيف سيحيا بعدها.

عند باب المقبرة عزيز الذي خرج بعد صعوبة جمَّة، وفي يديه ابنته وودن على يمينه يسأله أن يتصبَّر، حضر رسول من بعيد كأنه خرج من العدم.. اقترب من عزيز، وألقى على صدر الفتاة قلادة، ثم اختفى، بذهولٍ حمل القلادة، فأشار عليه ودن بأنها تفتح بتعويذة هو يعلمها، وحين بدأ بالتمتمة راحت القلادة ترتفع في السماء تتجه نحو صدر الصغيرة، وبانت ثلاثة حروف بلغة قديمة فهمها عزيز كما فهمها ودن، وصار اسم الصغيرة مكوَّنًا من تلك الحروف "ميث."

عزيز أخذ ابنته، وهاجر معها، وكان في كلِّ سنة في مثل يوم الحادث يعود ليزور زوجته، ويبقى بجورها لمثل يوم الدفن، ولم يحضر ميث أبدًا إلى قبرها؛ خشية أن يكون القبر مراقبًا، فلا السحرة، ولا الجِنّ يملّون المراقبة.. أما ودن، فبعد أن خطفت الصغيرة قلبه لم يفارقها، فقد كان يزورها، ويلاعبها بهيئته البشرية حتى بلغت الخامسة، ثم أصبح يراقبها عن بُعَد، يشمُّ أثر المتبعين كلّما أحسّ بقربهم أمر عزيز بالرحيل إلى بلاد ثانية، أو بيت آخر، وكان يظلّل هو الرائحة، ولكن هذا لم يستمر إلَّا عشرين عامًا فقط، فحين عاد عزيز ليزورَ قبر زوجته كانوا في انتظاره، السيدة التي أصبحت عجوزًا، ونفرٌ من الجن.. نظرت في عينيه:

- أين الصغيرة؟

- في القبر التي تقفين أمامه.

- أشمّ رائحة ابنتي في هذا القبر، هل تكذب حِسّ الأم

(قالتها بكلِّ تحدٍّ، وكل استهزاء).

- بئس الأم أنتِ (بكلّ حنق)!

- ستُقتل شرّ قتلة على ما تقول.

ثم أشارت لنفرٍ من الأنس الذي يقف حولها أن يطعنوه حتى الموت، ثم يلقونه على قبر زوجته، ومضت بكل قسوة قلب، لا أمومة، ولا رحمة فيها، وكيف لأمٍّ ولدت أن تعُقَّ رحمها وتقف على قبر ابنتها تعلم أنها سبب مقتلها، ثم لا يهتز لها طرف، ولا تشغل بالها إلَّا في حفظ مجدها الذي تعلم أنه بعد نيِّفٍ من السنين لن يكون لها.. قتل عزيز بكلِّ قسوة بثلاث وثلاثين طعنة.. الواحدة تَبِعَت الأخرى بكلِّ هدوء، وعيناه لم تفارقا شاهد إقا، كان ينظر إلى الشاهد كأنها تنظر إليه، وتصبِّره باللقاء القريب حتى استلقى في النهاية بقربها، وهناك قُبضت روحُهُ. من قال إن العِرْق لا يَحِنّ، فمنذ أول طعنه أُرسل رسل الإسكندر، لا لإنقاذ عزيز، بل للانتقام من قاتليه، فما كان إلَّا أن أحسّ الإنْسِيَّان بآلام الطعنات كأنَّ أحدًا يغرس فيهما سكينًا حتى تفجر الدم من فمهما، وراحا يتقيّآن أحشاءهما؛ حتى خرّا بوجهيهما على القَيْء، وهناك أُزْهِقَتْ روحاهما، وماتا شرَّ ميتة، ثم حُمِلَ الجسدان ليُلقيا أمام خلوة السيدة العجوز، وهذا مكان يحرُمُ على أحد المشي إليه، أو الاقتراب منه، فكيف بجثّتَيْن يلقيها أحد أشرس قبائل الجن على خلوة تحترم من الجميع - إنه والله إعلان حرب.

وصل خبر عزيز لودن متأخّرًا؛ لأن الاتفاق كان أن يبقى ودن في حماية ميث، ولا ينشغل في شيءٍ إلى حين عودة عزيز، ولكنَّ الخبر جاء ميث، ومن هناك علم ودن، ورأى الفاجعة تحلّ على ميث، وهو

ممنوع من الاقتراب منها، والتّشَكُّل لها لمساعدتها في تجاوز محنتها! على أول طائرة رحل ميث، ووقفت على رأس أبيها في المشرحة، ثم على شاهده في المقبرة، نظرت عن يمينها، فرأت اسم والدتها التي لم تَرَ لها صورة، ولم تسمع عن ذكرها سوى كلّ جميل، ها هي أخيرًا تزور قبرها بعد أن رقد أبوها بجوارها.. أيّ مشاعرٍ كانت تحسها ميث؟.. لا أحد يستطيع أن يلبس حزنَ أحدٍ، ولو بالكلمات..

وفي القول الثالث لتسمية الإنسان: اشتقاق الإنسان من الإيناس، وهو الإبصار، والعلم والإحساس.

ميث على قمة الهضبة تحاول استيعاب أن جدّتها ليست بجدّتها، إنما أم صديقة أمها وخالتها المُعَقّدة من الرجال هي صديقة أمها من الجامعة، كيف أُغْشِيَ على عينيها وفكرها، هي لم تَرَ صورة لأمها قبل البلّورة، ولم تكن تسأل عنها! اليوم فقط تعرف لماذا! كانت الأسئلة تدور في عقلها عن عدوّتها التي هي في الحقيقة جدّتها! عن والدها الذي يحمل في دمه من الجِنّ نسبًا! عن لماذا الآن، وماذا بعد هذا!!

بعض الحقيقة مؤلم، كيف شاهدت ميث أمها تموت؛ لأجل أن تحيا هي، كم هي جاحدة! حين لم تكن ممتنّة لحياتها التي حاربت أمها من أجلها.. وقبل كلّ شيءٍ ودن! التفتت إليه.. ناظرةً، ثم أسرعت لتلقي روحها في حضنه، وضمَّها.. آسفٌ لها، وربّما عليها.. قالت بكلّ هدوء، وهي لا تزال في حضنه: "لماذا أرسلت إليّ، ثم غِبْتَ، ثم ظهرت؟! أتريد أن أقف في وجه العجوز؟" لم يعلم ودن، أهو سؤالُ عَتْبٍ، أم هي تتكلم من منطلق الصدمة؟ ولكنه قرر أن يجيبها على أية

حال، ولكن قبل ذلك طار بها إلى السماء مجدّدًا. على الغَيْمة أسند ودن ميثَ، وأمسك بيدها، ثم بدأ الكلام: - حين أرسلت في البداية كان لمراقبة الأوضاع؛ لأنه قد جاء في الخبر بأن طفلًا سيولد من نسلَيْن عظيمين، وأنه سيعيش.. ولكن تنقطع أخباره لسبب مجهول، ثم رأيت أمك، فعلمت أنّي أرسلت لأمر هو أكثر من المراقبة؛ لأن أمك كانت جسر الوصل الوحيد بين مملكة سحر أمها، والقبيلة العريقة التي تنحدر الإسكندر منها وقد حدث ما حدث وحين الحادث علمت أن جد أبيك هو أخو الإسكندر التي قُتِلَتْ، وزوجته الإنْسيّة غدرًا، ثم مات ولدهما في حادث، ولم يعلم الجن أن زوجته كانت حُبْلَى بأبيك، فنجا وعاش كامل إنسانيته، فلم يُكتشف، وأما وجودي المتواصل، فكان لأجلكِ يا بُنَيَّة .

- ووجودك وقت الحادث.

- جدّتك علمت بكِ، وقد ساقتكِ الأقدار، وقليلٌ من سحرها إلى حيث وُلِدتِّ، وعلى الطريق نفسه الذي قُتلت فيه أمكِ، والسيارة تتّجه إلى الأسفل حاولوا قتلكِ بشَدِّكِ لصوت الطير وأنتِ متّجهة إلى الأعلى، هي البقعة نفسها، فلم أستطع تمالك نفسي والبعد أكثر، فجئت وكان ما كان..

- لماذا تريد قتلي؟!

- هذه هي تقاليدها.. إن لم تكوني في مدرستها، فلا مكان لكِ في الحياة!

- إذًا إن عدت ستعاود محاولتها لقتلي.

- لذا يجب أن نضع حدًّا قبل أن تقرّري مصيرك.

سكتت ميث، ولم يكن لها إجابة تردّ بها على ودن، فهي لا تريد قتال الساحرة، ولا تريد لها أن تفلتَ من قتل والديها، ولكنها أيضًا تظنّ أن هذه هي مسألة تخصُّ الشرطة والتحقيقات الجنائية، ثم مَنْ سيصدقها إن أخبرت أحدًا بذلك! هي نفسها لو لم تكن عاشت الذي قد عاشته، لم تكن لتصدّق ما حدث، بل لو ما تكن رأته لما صدّقتْ كلّ التفاصيل.. وما يشغل بالها أيضًا رحلتها القادمة.. أللعجوز، أم للإسكندر؟ وهل بعد الإيمان والرب ستسير في طريق السحر والشعوذة، أحست أن جزءًا من النصِّ مفقودٌ؛ لذا اتّجهت ناحية ودن:

- أخبرني مرة أخرى، لماذا كلّ تلك الرحلات التي خضناها؟

- لأنني يا ميث شهدت أول نَفَسٍ لكِ، وأول خطوة، وأول كلمة، ثم بعد المشي ركضتِّ، وكنت هناك، وقد تركتِ لنفسكِ مكانًا لَدَيَّ، وجاء يوم الحادث، وكنتِ تائهة كأنَّ أمكِ ماتت عبثًا، وهذا ما لا أستطيع تقبّله.

- نعم، لقد عشت سنوات في التّيه، وعانيت الآلام، ولكن هذا يحرق قلبي أكثر! أكثر يا ودن.

- ولكنك على هدى من ماضيكِ الآن، وقد تركت الرحلات في روحكِ الأثر .. (اقترب منها، دنا أكثر، وتحدث حديث الأب): أنتِ جاهزةٌ لرحلتك القادمة أينما اخترتِ وجهتها .

- هل حقًّا أنا جاهزة؟!

- أنت التي أنقذت رجل المكتبة العجوز من بؤس ماضيه، ومن ثأر الجِنِّيّ عليه، بل وصفحتِ بحكمة عن ذلك الجِنِّيّ! طبعًا أنتِ

مستعدة.

وفي القول الرابع لتسمية الإنسان بهذا الاسم أنه اشتق من النَّوس هو التحرُّك والمراد تحركه في الأمور العظام وتصرُّفه في الأحوال المختلفة.

كانت لهذه الكلمات الوَقْع الكبير على روح ميث؛ لأنها سمعت في صوته نبرة أبيها؛ كون ودن يقول مثل هذا الكلام لها بعد صمته الطويل، وسكونه عن أسئلتها، فهو إذًا حقًّا يعنيه. كانت تفكر كم هي الأيام تمرُّ سريعًا حتى في المِحَنِ! دروسها عبارة عن وَمْضات.. أنت إمّا خشعك النور، أو سهوت عنه، وفي ذلك خسرانٌ مبينٌ، نعم قد تصل إلى نقطة معينة تكتشف أن حياتك تتّجه إلى وادٍ سحيق، لا تعلم منه مخرجًا فلا ترى لنفسك إلَّا الجَزَعَ، وأول فعل تقوم به هو أن تغمض عينيك، فتفوتك الوَمْضَة، ثم تظن أنّك بلا ألطاف إلهية، أو أحد يسمعك، ويغيثك، والحقيقة هي أنك لا تسمع صوتك، ولا رأيت أمامك، وكيف حينها يلام أحدٌ سواك؟..

ميث بعد أن استوعبت الحقيقة، وتجاوزت الصدمة قليلًا جاء أوان أن تقرّر إلى أن ستتوجه، ولم تكن بحاجة إلى أن تسأل ودن، فالخيارات واضحة: تعود إلى جسدها فهو مشتاق ومتعب، وهي قوية قادرة على إنعاشه واختراقه، تذهب إلى الإسكندر، فتعرف جذور القصة، وقد لا تعود من هناك، أو تذهب بهيئتها هذه إلى جدِّتها المزعومة، وتواجهها في صداع أخير.. إمّا تنتصر، أو تعبر الباب.. في الخيار الأول رأت أنها ستكون ضعيفة، وهي ما عادت تحبِّذ الضعف، ولا تريد أن تظل مطاردة ما بقيت من حياتها، وهي في قرارها أقرب

إلى الخيار الثاني من الثالث لأنها آمنت بأن المعرفة الكاملة هي السلاح الأقوى، أما رأيها في الخيار الثالث فتحوطه الحيرة، وشيء من الغضب □ ماذا ستفعل، تنتقم كيف؟ تحاور؟ وهل أفاد الحوار من قبل؟! إذًا ما فائدة الذهاب؟ هل ستُرصد إذا شعروا بها في المكان؟ وكيف سيكون حالها، وحال ودن، وكلّما سألت سؤالًا غلب عليه سؤالٌ آخرُ. هناك كان حقًّا على دون أن يقطع سلسلة أفكارها تلك..

وفي القول الخامس: جاء سبب التسمية أن الإنسيين إنسيّون؛ لأنهم يؤنسون، أي: يُرون، وسمِّيَ الجِنّ جِنًّا؛ لأنهم متجنّبون، أو بعبارة أخرى: "متوارون عن رؤية الناس".

– هل تعلمين ما أعظم شعور للأنثى يا ميث؟

– الأمومة على ما أعتقد.

– نعم، وقد فقدتِّ من قبل، وستفقدين؛ لأن التعويذة تقول: "كلُّ مَنِ ابتعد عن إرث العائلة، ذكرًا كان أم أنثى سيُقطَعُ نسْلُهُ، ولن يبقى له ذِكْر حتى لا يولَدَ بعد أجيالٍ مَنْ يَرِثُ السلطة، وهو في بقعة بعيدة، ولم يتعلم علم أجداده منذ نعومة أظفاره.

– أنت تقول إنني لن أستطيع الإنجاب إلَّا لو حطمت التعويذة!

– نعم.

– أين هي؟

– في خَلْوَةِ السيدة العجوز.

– لماذا تصرُّ على مناداتها بالسيدة؟

– لأنه ميثاق قديم بين عائلتها وبين الجِنّ، كلّ مَنْ تولّى

السلطة يجب أن يُسبَقَ اسمه بالسيد أو السيدة، وإن كان المورّث الأم، فينادى بالشيخ، أو الشيخة.

– وطبعًا الجِنُّ يحترم المواثيق.. إذًا عليّ أن أبطلَ التعاويذ.. والذي أراه أنه لا خيارَ حقًّا أمامي سوى زيارة العجوز.. لحظة لَدَيَّ سؤال هل لها وريث غيري؟

– نعم، فقد كان لأمّك أخٌ صغيرٌ تزوج، وأنجب ابنةً، ومات شابًّا مع زوجته غرقًا!

– هل أغرقته هي؟

– لا، ففي الميثاق أيضًا أن تخسر الأم إذا تسلّمت السلطة أحد أبنائها بحادث، أو مات غرقًا، وكان ذلك أحد أسباب قتلها لابنتها؛ حتى لا تخسرَ ولدها، ولكنها تناست أن هناك مَنْ يختار الذي يموت، وليست هي..

– كأنها حزنت.

– وردني أنها حزنت حزنًا شديدًا؛ ولهذا قتلت أباك، فهي ترى أن أمّكِ هي المسؤولة عن موت أخيها!

– أهي ساحرة، أو مجنونة؟

– هي أم بالرغم من كلِّ شيء.

لم تعلق ميث؛ لأنها تكره عملها، ولكنها لا تعارض قول ودن، فهي وقفت بعيدًا حين قتلت ابنتها، ورحلت قبل أن يقتل صهرها، وخلت حين ولدت ميث؛ حتى لا ترجعها تلك المشاعر، فتحتضن حفيدتها.. نعم هي أم على الرغم من كلّ شيء. هناك عند فكرة المشاعر والأمومة خطرت لميث الخطة التي ستواجه بها جدَّتها، وقبل أن

يحين عليهم الشروق سألت ودن بأن تشرق عليهم الشمس في مدينة جدتها، فلبَّاها بأن طار بها إلى تلك الوِجْهة، في الطريق اعترضهم بين السماء والأرض وفدٌ مَهيبٌ تتوسّطه سيدة جميلة. ذات شعرٍ أسود طويل، كما أنها شديدة البيضاء.. انقسم الوفد إلى شطرين، ومرّت هي من خلاله قاصدةً ميث، وبصوت يملؤه الحنان قالت:

– كم هو عظيم الشبه! كأني أقف أمام أمكِ.

– هل حقًّا أشبهها؟

– نعم، وأنا كنت إذا اشتقت لها أتيت لأراكِ، لكن للأسف كنتِ لا تستطيعين رؤيتي.. (أخذت تبتسم وهي تتأمّل ملامح وتقاطيع ميث)، ولكنَّ هاتين العينين هي عينا أبيك ورثها عنّا (وابتسمت ابتسامة فخر بسلالتها).. خذي هذه الحروف إليك، وضمّيها عن البشر، قوليها إن اشتدَّ الأمر عليكِ.

– هذه الحروف قرأتها في الكتب المقدسة؟

– نعم، هي كذلك، ولكن ضمّيها يا ميث، وانطلقي.. هيّا إلى مسعاكِ. (قالتها وهي تضمُّ ميث، ثم همست لها بكلام كأنها لا تريد لأحد أن يسمعه).

واختفى الركب هكذا كأنه لم يكن، وعادت ميث يصحبها ودن إلى حيث وجهتها.

الترتيلة السادسة

هبطا مع بداية الشروق.. ها هو القرص هناك سيبدأ بالظهور بعد دقائق، ستُنَار الدنيا، وسترى ميث مسقط رأسها، وكيف تبدو جدّتها.. راحت تمشي مشيًا بطيئًا ترقب البيوت الطينية، وكأنهم لم يصلوا للقرن الواحد والعشرين بعد، هذا مستوصف بسيط، وتلك هي الغرفة التي ضاع مفتاحها.. هي كانت هنا من قبل، تعلم هذا المكان؛ لأنها زارته، وليس لأنها رأته في البلّورة، هناك سمعت صوت القطار، فمضت إليه تتأكد.. نعم كانت هي المحطة نفسها، وهذا هو الهاتف الوحيد في القرية — كم يبدو الوضع مُرْبِكًا! أليست هذه أول وجهة كانت لها مع ودن! وعلى قدر تعجُّبها من ودن كان تعجُّبها بعدم شعور أيّ ربطٍ بينها وبين هذا المكان، كيف لا تشعر بالمكان الذي رأت فيه النور لأول مرة؟ وكيف لا تشعر بالمكان الذي ترعرعت فيه أمها، ومشت فيه أولى خطواتها، بل وحيث ركضت فيه وضحكت.. ثم في الكِفّة الأخرى كيف لها أن تشعر بالمكان الذي سلبها أمها، وكان يريد تحويلها إلى ساحرة، أو ربّما ما زال، هي لا تعرف.. بنَفَسٍ عميقٍ قطعت ميث هذه الأفكار، وراحت تبحث عن ودن بين الأحياء، وهي تحاول أن تتغاضى عن الطين، والألوان الغريبة التي تغطي بعض البيوت، تلك الزهور التي نَمَتْ على أطراف الأبواب، وبعض الأوراق التي تسلقت بين الطين تتَّضح أكثر، فأكثر كلَّما علا قرص الشمس في السماء.. هي لا تريد أن ترى إلَّا ودن، ثم ها هي قد لمحته على التَّلَّةِ كالبرق ظهرت أمامه — كانت قد تعلمت أن تنتقل بشكلٍ يتناسب مع

الطبيعة التي تعيشها في ذلك الوقت أخيرًا.

– ماذا تفعل هنا؟!

– ها هنا كان بيتك، وهنا وُلِدتِّ.

– لا عجب أن البيت هُدِمَ.

– بل أُحْرِقَ، والممرضة التي استقبلتكِ..

– حرقوها حية!

– نعم، ظنُّوها نجسة!

– أيُّ كفر هذا؟!

– سيخرج الناس من منازلهم بعد قليل، وسترين في الظاهر كلّ شيءٍ إلَّا الكفر.

– وسأتذكر أن الدين كل شيء إلّا هم.

نزلت ميث كأنها روح إقا تركض وتحوم مجدَّدًا في قريتها؛ ولأنها الرائحة لن تكون غريبة كان وقوف ودن على تلك التَّلَّة، ليس سوى تعويذات تُبعث مع كلّ نسمة هواء يحصن بها ميث لئلَّا يُحَسّ بها، أو يشُمّ ريحها مخلوق، ولم يكن هناك يبكي على الأطلال إلَّا ساعة نزوله؛ ليلحق بميث التفت بعينه فقط، فكأنه رأى روح إقا تراقبه من هناك مبتسمة توصيه بابنتها، وتذكره بالنسب الذي يجمعهما، فراح ودن في لحظات يقف عن يمينها..

– هل انتهيت من التحصين؟ (قالتها ببعضٍ من اللَّا مبالاة بعد أن باتت لا تثق بحصن مخلوق بعد أن رأت أمها تُضَرّ، رغم كلّ التعاويذ، متناسيةً أنّ كلّ تلك التراتيل لم تكن لحفظ نفسها، بل لابنتها).

– كيف عرفتَ؟

– أصبحت أعرف ماذا تعني حركاتك وسكونك، فحين كنت على التَّلَّة رأيت منك كالذي رأيته عند هبوطنا للصحراء.

ابتسم ودن لذلك، وقرر ألَّا يتدخَّل كثيرًا في أمرها؛ ليرى شكل الخطة التي رسمتها. بينما هو يبتعد عنها خطوات تقدَّمتْ هي إلى ساحة القرية بخطواتٍ أسرعَ، وقفت أمام المقهى.. تمتمت بكلمات، فتحركت الرِّمال، وخطت إقا برسم واضح باللغة السّريانيّة، ثم ابتعدت لتقف إلى جانب ودن. هو يعلمُ أن الكلِمات التي أعطتها الإسكندر إلى جانب قراءتها في المكتبة، وما أهداها الرجل العجوز هو سبب ما تستطيع فعله الآن، وقد كانت قادرة من قبل؛ ولأنها أَلِفَتْ أنه فخور بها.

علت الشمس، واستيقظ أهل القرية، فتحوا أبوابهم، وعلا شيئًا فشيئًا صوت السلام والتهليل، كما خرجت النساء يسقين عتبات الباب، ويضعن سلاسل مختلفة على أبوابهم مزخرفة برسماتٍ غريبةٍ، والعجيب في أمرها أنها يجب أن ترفع قبل الغروب أما إذا بقيت، فهي إذًا ستختفي كأنها لم تكن، وذلك يجرّ على أهل الدار البلاء، وإن ذلك حصل، فيجب على أهل ذلك الدار أن يقدّموا قربانًا من البهائم ووجب أن يكون له قرنان يسيل دمه عند الباب، ويُترك الرأس لمدة ثلاثة أيام تقام في كل ليلة في ذلك البيت مجلس للذكر، وإذا حضرته السيدة العجوز في الليلة الثالثة فقد غُفِرَ لأصحاب المنزل، وإلّا فيقدّم أهل ذلك المنزل أجمل فتاة، أو صبيًّا ليعمل في المزرعة.

– أوليس هذا غريبًا يا ودن، مجالس الذكر للرَّبِّ مع كلّ تلك

الخزعبلات؟

– بلى هو ذلك، انظري هناك..

وأشار ودن إلى ناحية دار العبادة.. يخرج منها شيخ جليل المظهر يرتدي سبع مسابيح أغلبها باللون الأخضر، وواحدة بالأحمر، أما ما بَقِيَ، فلونُهُ لون التراب يتراكض الناس إليه لتقبيل يده، وهو يبتسم لهذا، ويضع يده على رأسه، ثم يدعو لذاك، ويشير له بيده. من قبّته يتّجه إلى أبواب المزرعة ليأخذ من خضارها ويوزعه على المحتاجين. ولكن في ذلك اليوم لم يصل إلى باب؛ لأن طفلة اعترضت طريقه، أخبرته بأنّ هناك رسمًا غريبًا في وسط السوق بلغة غريبة، ولا يُمْحى من آثار الأقدام، توتّر الشيخ، وعاد مع الفتاة إلى السوق وهي تركض أمامه، وتشير بيدها □هناك، هناك مولانا□ هو يحاول أن يبتسم لها، ولكن توتّره يمنعه من ذلك، وما إن وصل، ووقف أمام الكلمة حتى بانت عيناه بلونهما الأسود من تحت حاجبيه الكثيفين الرماديَّيْن.. صُدِمَ لا للاسم فقط بل للّغة، والأعجب هو ثبات الكلمة؛ وكي لا يثير ريبة الناس عاد، وواصل طريقه لأخذ الخضار، وتوزيعه، وما إن انتهى، وعاد حتى رأى الناس قد تجمَّعوا يحملون أنواعَ البخور يطوفون في الساحة.. كلٌّ يتوسَّل بأسياده كأنهم نَسَوْا تهليلهم.

في أول الصباح، اقترب منهم، وأمرهم بمواصلة حياتهم، وما هذا إلَّا من عمل الشيطان؛ حتى يشغل الناس عن العمل الذي هو العبادة، وكان ممَّا قد قال:

"زوروا ضريح الولي الجَدّ الأعظم للسيدة، واعقدوا الخرقة، وضعوا الكرامة للدستور"، فَهُرِعَ الناس للمقابر يزورون أجداد ميث

يربطون الخِرَقَ الخضراء والحمراء. هناك طلبت ميث من ودن أن يحفظ وجوه مَنْ زاروا اليمين، وستتولّى هي اليسار، ثم بعد انصراف الواحد منهم كانت تذهب مع ودن عند عتبة بيته، وتخطّ بالرمل إقا، وكذا فعل ودن مستفيدين من سرعة حركتهم التي قد تقاس بالضوء، ومع منتصف النهار انتشر الهلع، وتوقّف الناس عن زيارة المقابر، وغابت الحياة عن السوق، فنصفٌ في المسجد، والنصف الآخر معتكفٌ في البيت لا يقوى على الخروج، وبقيت ميث في المقبرة تقرأ الأسماء على الأضرحة تتساءل عن حالهم في العالم الآخر بعد الباب.. وهي على تلك الحال غارقة في تأمُّلها التفتت إلى دون بوجهها لا بعينيها:

- أين يدفن العاصون للورث؟

-أسفل التَّلَّة عند شاطئ البحر.

فهبطت إلى هناك يسبقها ودن، فرأت عددًا مهولًا من الشواهد البالية..

- كلّ هؤلاء.. متى سيتوقف هذا؟

- لن يتوقف.

- إذًا ماذا نفعل هنا؟

- نحن هنا لنضع لهم حدًّا فيما يخصُّك ومستقبلك، أما أن ننهي هذه القضية، فأنتِ تحتاجين للسيف الذي هبط من السماء، وانتصر به بنو الإنس على إبليس.

- كأنك تقول أحتاج إلى أسطورة.

- لربّما!

بين كلِّ الأسماء لا يوجد اسمٌ يشبه اسمها، أو حتى اسم إقا.. كأن أمها تفرّدت بالاسمين لهما.. لم يكن هناك أيّ معنًى من زيارتها للقبور - هكذا ظنّت - وقبل أن ترحل سألت ودن باستنكار:

- هل يستطيع الجِنُّ نشر الشائعات؟

- نعم. (قالها وهو يضحك عالمًا بِنِيَّتِها).

ميث قالت في نفسها إنه لا فرق بين مَنْ هم في الأضرحة ومَنْ هم على الشاطئ سوى وراثة عُهْدَة السحر، بل هذا ما يزيدهم سوءًا، فماذا لو رأى الناس أن عقدتهم ستُحلّ بزيارة قبور الشاطئ؟

زار ودن حلم إحدى السيدات التي كانت نائمة وقت الظهيرة في ذلك اليوم، فصُوِّرَ لها رجلٌ صالحٌ يمشي إلى الشاطئ، حيث ظهر النور أمامه بين تلك القبور، فقامت مفزوعة، وصدقت منامها، وأخبرت الجيران بأنها رأت السيد الجَدّ الأعظم يذهب لقبور الشاطئ، فحذّروها من قبور العصاة، ولكنها لم تنصَعْ لهم، وراحت تركض للقبور تحمل معها الدراهم والعطور، لا تدري أيّ قبر ترشّ، أو أيًّا تترك، ففي القبور العلويّة هناك تقسيمة للحاجات.. قبر للحب، وقبر للرزق، وآخر للزواج، ومع كلِّ وريث يوم يموت يصبح لقبره بابَ حاجة حتى تُزَار كلّ القبور عدا الجَدّ الأعظم فهو كلّ الحاجات.. بعد ساعة عادت المرأة إلى بيتها، ورأت أن الاسم قد مُحِيَ فراحت تنشر الخبر بين الناس، وبذلك ذهب قلّةٌ يجربون وفعلًا مسحت الأسماء من أمام بيوتهم، وما غربت الشمس حتى كان كلّ البسطاء قد زاروا قبور الشاطئ ومَحَتِ الأسماء من أمام بيوتهم، ولم يَبْقَ إلَّا الاسم الذي هو في السوق الذي أرادت ميث ألَّا يُمْحى ما دامت القرية على

حالها، وسيدة المزرعة تحركها..

عاد الناس إلى بيوتهم يتسامرون تحت النجوم يتساءلون في سِرِّ قبور الشاطئ يظنون أن وليًّا قد دُفِنَ هناك؛ لذا قد استجيب لهم، أفكارهم ليست محصّلة لتفكيرهم، بل لما زرع في عقولهم، وتوارثوه، فمنذ قديم الزمن كان للسحر والسحرة هيبة تفوق هيبة الدين، فأصل كتابة الشعوذة، والطلسمات جاء من فارس، ونُقِلَ إلى الهند وبابل، وبلاد الفراعنة، وأكثر ما ازدهر كان عند البابليين، وكان طريقًا سهلًا لمآرب البشر والجن على حدّ سواء، ثم جاء عصر النبي سليمان الذي قلب الموازين، ووضع الجِنّ كلّ كتبهم تحت الهيكل آملين أن تستخدم فيما بعد، ثم تشكل إبليس ودلّ البشر على هذه الكتب، واتّهم سليمان النبي بأنه ساحر، ثم جاء الأمر الإلهي بأن يُبَرَّأ في الإنجيل والقرآن، فَكَرِهَ اليهودُ ذلك؛ لأنه عكس ما كان قد قيل لهم، وجاء في تعاليمهم، ومع تنامي الدين، وأهله كان على رجال الشعوذة أن يلبسوا عباءته فوجدوا أن يقولوا على الأولياء إنهم وضعوا للناس أحرازًا فيها نجومٌ، ومربّعات والعاقل يعرف أنها من عمل السحرة لا أهل الدين، أما الناس، فمنهم من يرى، ويقول إن الدين هو أمرٌ رُوحانِيّ أُنْزِلَ من السماء، وهو أيضًا خارقٌ للطبيعة، ولا يرى التمييز بينهما، ومن هناك أَغْرَوْا رجال الدين بأنَّ يكونوا مِمَّن يساعدون الناس بخليطٍ ممزوجٍ بين الدين، وتلك الروحانيات التي ورثوها، وارتقي إلى طرق العروج والشهود، فتكسب لقمة عيشٍ تضاهي الوزير، فأغراهم المال، وصاروا يدلُّون الناس على القبور، ويخطون بأيديهم النجوم، ويقولون هو من عند ربٍّ قديرٍ.. أي نعم هو قدير، ولكن ليس

عن طريق القبور، ولا بشخبطة على ورق، أو أحجار، ونذور ما أُنزل بها من سلطان.. بعد أن اختلط الدين بالسحر أصبح سهلًا على أهل السحر أن يلبسوا جلباب الدين أيضًا؛ لأنه كان قد مَهَّدَ لهم من أهله، وجرت الناس بمنطق التحصين، والحماية، ودفع البلاء. متناسين في ذلك كله أن الطريق سهلٌ لرَبِّ السماء —(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم). كما أنه قد اختلط أولياء الله بأولياء السحر والجن، وصار يُمَارَسُ لدى أولياء الله ما لا يُرضيهم، ولا يُرضي الله، ومضى الناس على ذلك، ورَأَوْا فيه تراثهم، وصمَّمُوا على أساسه طريق حياتهم، كالبشر في تلك القرية جاء السحر إلى بلدهم منذ قديم الزمان، وكان يتكيّف بذكاء مع كلّ دين يدخل إليه، فبمالهم كانوا يطعمون الفقراء، وبتمتمة لسانهم كانوا يشفون المرضى وببخورهم كانوا يردّون الأعداء، ويزوّجون العذراء، والثّيِّب، ويصلحون بين الأزواج، فما رأى الناس بالظاهر منهم إلّا الخير، فظنّوه والدين وجهين مكمّلين لعملة واحدة، فصاروا أربابًا على رجال الدين، وعامة الناس، وقالوا للناس: "لسنا عليكم أربابًا" بألسنتهم، وأمروهم بالانصياع بأفعالهم. وجاءت ميث من تلك السلالة وها هي هناك تحاول استرجاع حريتها ورحمها..

هي تعلم أن هذا النظام لن يتغيّر إلّا وإن تكاتف بنو البشر، لكن يصعب عليهم وهم الذين يدافعون عن كلّ أنواع التراث دون التدقيق فيه بشكلٍ حقيقيٍّ..

في الليل على التَّلّة كما كان الناس في الأسفل يتسامرون كذا كانت حال ودن، وميث:

– ماذا حصل؟! لماذا يهاب الناس أمي؟

– قيلت لهم الحقيقة بتشويه بسيط أحدث فارقًا كبيرًا.

– ماذا قيل؟

– إنها وبعد أن ولدت رأت السيدة علامات غريبة على المُوَلِّدَة.. خصوصًا بعد نبوءات الصبي، فاختلتْ خَلْوَةَ الأولياء أربعين ليلة، فرأتْ أن المُوَلِّدَة لها نسبٌ من الجِنّ، فخافت على أهل قريتها من أن يُسْحَروا، أو يُصابوا بالسُّوء؛ لذا أمرت ابنتها بأن تسلم الصغيرة، ولكنها هي أيضًا كانت خائنة، فوقفت السيدة على الجبل تدعو الله أن يحفظ أهل القرية من هذا المُصاب الجَلَل، فانقلبت السيارة بأهلها، وماتوا جميعًا.. أما خوفهم من اسم إقا، فهم يظنونه اسم المولودة التي هي نصف جِنِّيّ!

– ولكني لا أحس بنصفي الجِنِّيّ أبداً

– التأثير يقلُّ من جيلٍ إلى جيل، تحسّين به، ولكن لا تفهمينه.

– علِّمْني.

– لا.. أفضّلك إنسانة.

وفي رأس المثلث كانت السيدة العجوز "عواطف" عند باب خَلْوَتِها تراقب السماء قد بلغتها للتَّوِّ أخبارُ القرية، وما جرى فيها، فأرسلت الجِنَّ إلى الشاطئ والقرية يشمّون الأثر.. يسألون عن الدّخلاء من كلِّ الأجناس، ولكن الرسول عاد بخبر لم يقنعها، أخبرها بأن كل شيء يبدو طبيعيًّا، وكان هناك أيضًا خبرٌ يقلقها، بل يزعزعها من النجوم والسماء، خبر يقول إن يومها قد اقترب، فأمرت بأن يُؤْخذ الوريث إلى الغار بحجة التعلم، وأن تخلوَ الخَلْوةَ، ومحيطها من الجِنِّ والأنس يوم غد.. هي كانت تستعد للموت، ولا تدري مَنِ القاتل، لم تكن

تريد الاختباء، أو القتال؛ حفاظًا على السلطة، ومكانتها عند الناس، فمواثيقها تقول: "إذا اخبرت النجوم بأنك مقتول، فلا تقاوم، وامضِ إلى مصيرك، وقبلها جهِّز وريثك، كم هي الروح رخيصة عن أهل هذا العالم!"..

على التَّلّة مجدَّدًا سأل ودن ميث عن خطتها للغد، فابتسمت له ميث:

- سندخل الخَلْوَة، ونبطل التعويذة بالنّصل الذي أخبر عنه في الكتب، ثم أريد أن أرى جدتي، وأريدها أن تراني، ثم نختفي على ذلك للأبد.

- بهذه السهولة؟

- نعم.

ضحك ودن من جرأة ميث، ولكنه أبى أن يناقشها حتى لا يثير غضبها، فتقام هناك حرب يخسرها فيها، ثم استأذنها ليذهب، ويأتي بالنصل، فكان سريعًا ولم يتأخَّر إلَّا دقائق معدودة، وحين عودته بان التّوتُّر على وجهه، وقد لاحظت ميث ذلك عليه، وحين سألته تحجَّجَ بالنَّصل، فما صدّقته، وبدأت هي تتوتر أيضًا، فلم يستطع المراوغة أبدًا، قال بصوتٍ بدا لها غير بشري:

- في رحلتي إلى النَّصْلِ سمعت من الجِنِّ أخبارًا عن مقتل السيدة العجوز.

- أماتت؟ (بصدمة).

- بل تقتل غدًا!

- على يد من؟

– لا يعلم الجن من وهذا، وما يحيّر!

– أنحن؟

– لا أردي فبعض الأقدار مخبّأ.

– إذًا لنؤجِّلِ الأمر ليوم آخر.

– بل ننجزه مع الشروق؛ لأن العجيب هو أنّ الخلوة قد هجرت من كلّ البشر، وكذلك الجِنّ؛ لذا فدخولنا وخروجنا سيكون سهلًا للغاية.

– هُجرت! ماذا؟ بدأت أتوتر..

– نعم، حين يعلم السيد يخبر موته عليه أن يعتزل الخَلْوة، فهي ليست ملكه بعد خبره، ويجب أن يبعد كلّ التوابع عنها، ولا يعيدهم إلَّا الوريث بعد أن يصبح هو السيد.

– إذًا هناك مَنْ لا تستطيع الاحتجاب عنه، ويسدّد لها طريقنا في الوقت نفسه بأن كان سببًا في إخلاء المكان..

– ميث، انتبهي من هذه الشبهات المسدّد هو الرَّبُّ، أما القتل، فهو من عمل المخلوق ونعم أظن أن هناك مَنْ يراقبنا وهو إمّا ساحرٌ من الإنس، أو جِنِّيّ أعلى منزلةً منّي.

– فلننجز نحن عملنا، ولنَدَعْه لعمله.

– هذه جدتك.

– التي قتلت أمي وأبي!

– وماذا إن كنت أنتِ القاتلة بعد ساعات؟

– لن أكون إن شاء اللّه.

– إذًا لن تكوني. (ابتسم بطمأنينة).

قضت عواطف ساعاتها الأخيرة على مُصَلَّاها إلى ما بعد الفجر.. أما ميث، فقضتها بالصمت الذي يصحبه التّرقُّب، والتّوتّر، فأية حال تنتظرها بعد ساعات، وماذا سيحدث حين تبطل التعويذة، ويعود لها رحمها طبيعيًّا، وتعود لها حريتها، أستعود لجسدها، وتعيش كأنَّ شيئًا لم يكن؟ أم أنَّ هناك رحلات أخرى ستعيشها قبل أن تعود؟ أم أنها لن تعود البَتَّةَ؟ وماذا سيحدثُ أيضًا للورثة الآخرين؟ هل حقًّا سيضيع الميراث، وستندثر هذه العائلة؟ هي لا تعلم، ولكنها متيقّنة بأنَّ خلاصَها، وخلاصَ آخرين لم يولدوا بعدُ سيكون على يدها بعد ساعات..

مضى الوقت كما مضى غيره سريعًا على البعض، ثقيلًا على بعضٍ آخر، وأشار ودن على ميث بالتّحَرُّك، ولم تشأ إلَّا أن تتحرّك بسرعة، وهكذا كلمح البصر هي أمام باب الخَلْوَةِ مع ودن..

– لن أستطيع الدخول معك.. هذا هو النصل أمامك ثلاث دقائق فقط، وإلَّا اجتمع علينا الجِنّ، والإنس في الدقيقة الخامسة.. بعد الثالثة سنهرب، وحين يأتون سيكون ريحنا قد اختفى، ولا مجال لإنقاذ التعويذة، فهذا النَّصْلُ نادرٌ جِدًّا..

هزَّتْ رأسها موافقة، ومرّتْ من خلال الباب..

هي غرفة عادية ليس لها إلَّا فتحة صغيرة في السقف يدخل منها النور، وليست هناك أية وسيلة للتبريد، أو التدفئة، لا يوجد بها شيءٌ إلَّا حصيرٌ، ومبخرٌ عتيق كبيرُ الحجم صُنِعَ من الفخّار، وهناك في الزاوية على اليمين توجد طاولة من الخشب عليها صناديق بعضها مزخرفٌ بالذهب، وهناك المزخرف بالأحجار، وآخر باللؤلؤ، وعلى

زاويةَ الطاولة يمين الصناديق، توجد أوراقٌ ومَحْبَرةٌ، وريشٌ للكتابة، لكن أين التعويذة؟.. نظرت بسرعة إلى شكل الأحجار.. تذكرت عشقَ والدها للأحجار وأسرارها، وبحماس قالت: "ها هو.. حجر القمر المتحكّم بالهرمونات الأنثوية ومشاكل الحَمْل، والعقل"، ثم أغمضت عينيها، وقالت: "أحبك يا أبي"، وغرست النصل في الصندوق، فتساقطت أحجارُه، وبدأت رائحة نتنة تخرج منه، فقرأت عليه حروفها التي علمتها "الإسكندر"، وأسرعت في الخروج حاملةً النصل بكلتا يديها فرحةً بإنجازها..

لو كان المشهد في فيلم سينمائي، لبان مشهدًا لغيوم سوداء، ولسُمِعَ صوت الرَّعْد في الأرجاء.. لما كانت ميث على وشك رؤيته خارج الخلوة، ولكن كل ذلك التصور ليس أبلغَ من خروجها لترى جدّتها تنتظرها، وودن ملقى تحت قدميها، مقيدٌ بأصفاد من نار، لا يقوى على النهوض، أو الكلام! والجدة لا تحرّك ساكنًا، ولا شيءَ يشدّ فيها إلّا ابتسامة النصر التي تعلو وجهها، تنظر لميث بكلِّ حقد، وهي تعلم من هي؛ بسبب الشبه البليغ الذي يجمعها وأمها.. ولكن المشهد صامت، والنصل بين يديها ثابت، ولا يتحرك في ميث شيءٌ إلّا عيناها اللّتان ترمقان بهما ودن بحسرة، ثم ترفعهما، فتَرى جدّتها بكلِّ حقدٍ كأنَّ العيون تتشابه في لغتها، ثم بعجرفة قالت العجوز:

– رأيت أمَّك، ثم أباك وهما يُقْتَلان لأجلكِ، واليوم سأراكِ والجن يمزق روحك، ثم يذهب الإنس إلى حيث جسدك، ويمثّلون به في ساحة القرية شرّ تمثيل، والرَّبّ سيبارك!

– الرَّبُّ لا يبارك الشعوذة، ولا يتقبّل من أمثالكِ القرابين..

– لـن أغضـب الآن، فأمامـك دقيقتـان قبـل أن أراكِ تتعذبيـن، ثم إلى الجحيم ستساقين..

إلهـي، آمنـت بـكِ، فـلا تتخـلَّ عنـي، هكـذا صاحـت ميـث فـي داخلهـا، وهـي تعلـم أن السـبل كلهـا مُقَطَّعـة إلَّا سـبيله..

"جدتي، مـاذا تفعلين أمام الخَلْوَة؟!" صوت من بعيد يقترب.. التفتت العجوز وإذ بها وريثتها، بَدَت الجدّة حائرةً، ولكن استجمعت شتاتَها، ثم صرخت بها: "لا أريدكِ أن تقفي أمام هؤلاء.. عودي إلى الغار"، فظهرت علامة الدهشة في وجه الوريثة: "لا يوجد غيري، وأنتِ في هذا المكان"، فغضبت العجوز "فاشلة بلا بصيرة كأبيكِ".. هناك تقدَّمت الوريثة خطوات، وبسخرية قالت: "لحظة.. هناك شيءٌ.. إنه نصلٌ معلَّق في الهواء.. أظنه.." سكتت، وابتسمت في وجه ميث كأنها تؤكد لها أنها تراها، سحبت النصل من يَدَيْ ميثَ بهدوءٍ، ورَمَتْه في الهواء على يمين جدّتها، فمر على مقربة من وجهها، فضحكت الأخرى: "تريدين أن تقتليني يا ابنة الجارية.. فاشلة حتى في هذا"، وأما وريثتها، فلم تهتز منها شعرة، بل قالت وهي لا تزال تنظر إلى ميث بابتسامة هادئة: "لست أنا من سيقتلكِ.. إنه مولانا" هنا بانت الصدمة على وجه ميث، وبجرعة أكبر على وجه العجوز، فالتفتت لترى شيخ القرية يحمل النصل يبتسم، ثم يوجّهه إلى قلبها، ولم تنطق هي بآه في كلّ ذلك، وأبى الشيخ أن تقع على الأرض؛ لذا احتضنها، وأسندها إلى الأرض بكلّ رفق وهو يهمس في أذنها: "قتلك الزوج الذي قتلني أولاده، ونفيته من مخدعه.. قتلت روحه التي كانت تنعش قلبه، فسلبك روحكِ". أغمض عينيها، ثم سحب النصل،

وفكَّ قيود ودن به ثم سلَّمه النصل، وطلب أن يرحل بميث بعيدًا، ولا يعودا، ثم توجه لميث وتأمل وجهها ابتسم: "ليكن الله حاميكِ" ومشى بعيدًا متجهًا نحو فيلّا المزرعة تتبعه حفيدته الأخرى.. وعلى هذه الحال طار ودن بميث مجدَّدًا نحو السماء ولم يبقَ في تلك البقعة سوى سبب كل الحكاية، ولكنها بقيت جثةً هامدة.

الترتيلة السابعة

يقول "هاروكي موراكامي" كأنه استقى من الحياة بعضًا من خلاصتها:

(في حياة كلِّ شخصٍ نقطة لا عودة).

وتتساءل ميث أثناء ابتعادها مع ودن عن مسرح الجريمة: هل هذه هي النهاية، وبداية عهدٍ جديد؟ مَنْ سيتحمّل المسؤولية؟ وهل سينام المسؤول دون حسابٍ؟ عجيبون هم بنو البشر، كيف يجهلون الدم، ويتعالون على القرابة والقلب؟ لمجرد أن ذلك الذي يشاطرهم النسب لا يشاطرهم المعتقد، أو الفكر، يقتل بعضهم بعضًا لا بالفعل أحيانًا، بل بالإحساس والتجريح، هم أيضًا مستعدون أن يصعد بعضهم على كتف بعض يمثل الحب ليحصل على الغنيمة، ثم يعدي بأنه كان وأخوه في صفٍّ واحد.. هم يظنون أنهم إذا غلبوا كان الحقُّ معهم متناسين قاعدة مهمّة، فالله- عز وجل- قال عن الظالم إنه سيفه ينتقم به ومنه، وهو في ذلك يمهل ولا يهمل، ثم إنهم من تاريخهم لا يعتبرون.

(لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

من الآية ١٠١ : سورة المائدة

بعد أن علمت ميث أن لا شيءَ جوهريًّا سيتغيّر في تلك القرية سألت ودن عن حالها بعد أن عرفوها، فطمأنها وتعهّد بحمايتها، ولم يجبها فيما إذا كان جدّها، أو قريبتها كانا يعلمان أنها ستكون هنا بالنصل، ميث لم تعلم إن كانت جزءًا من خطة انتقام، أو أنهم كانوا

من مستغلّي الفرص بعد أن اقتصوا وجدها بذكاء لا بالشعوذة.. هي انتابها الفضول عن تلك الوريثة، ابتسامتها وعلاقتها مع جدها، وكيف تجرَّأت على خيانة جدتها التي ربّتْها وعلّمتْها؟! هي تعلم أن موت أبيها لم يكن من فعل جدتها، أوَ هُوَ حقًّا كان؟

ميث لن تعلم ذلك حقًّا؛ لأنها لا تستطيع العودة إليهم، لا في هيئتها الحالية، ولا حتى إذا عادت إلى جسدها؛ لأنها لا تأمنهم؛ وكيف لها ذلك؟!

لقد أصبحت حياتنا شريرة، بل أكثر شرًّا من حياة الوثنيين، في ذلك أننا اعتنقنا بدلًا من الإيمان الحقيقي إيمانًا مزيّفًا مخادعًا.
"ليف تولستوي"

دار العبادة والمُصَلّى، وكل الطقوس الدينية التي تُمَارس في تلك القرية، أو غيرها، قد يعجب أصحاب العقل، العلم، والمذاهب الأُخرى منها.. هل هكذا حقًّا يُعبد الرَّبُّ؟ أم أن كل الطرق صحيحة ما دام أن النِّيَّة خالصة — لا أحدَ حقًّا يعرف إلَّا القِلّة القليلة. ميث رأت في وجوه بعض القرويين الإيمان، والرغبة بالتقرّب إلى الله كما رأته في بعض رحلاتها السابقة على وجوهٍ عِدَّة، الأمر الذي يجعلها في حيرة من أمرها! أيّ هذه الطرق هو الصحيح؟ أم أن الطريق الصحيح قد اندثر بفعل تراكم الزيف على مدار الأزمان؟ هل يجب أن يبتدع الإنسان لنفسه طريقًا خاصًّا، أم يأخذ من كلّ جماعة ما أفتاه به قلبه؟ أو هل الحلّ هو أن يبحث، ثم يضع ذنبه على كاهل رجال ذلك

الدين، فهم الذين بَرْهَنُوا له؟.. ماذا لو كانت تلك البراهين مزيفة؟

بعد تأمّل تذكرت قول ودن: "مَنْ يبحث عن الحقيقة بِنِيَّةٍ خالصة سيجدها دومًا".

كان المصري ينظر إلى كلِّ ما يقوم الكهنة به على أنه حقيقة، لكننا لم نعد ننظر الآن إلى تلك الأمور بالطريقة نفسها.

ينظر السُّذَّج من الناس — الذين لا يعرفون العلم — إلى العلم على أنه شيءٌ يشبه الإيمان، وأنه أعلى كشف معرفي قد وصل إليه الإنسان، ويصدقون دون أدنى شك كل ما يقدمه إليهم كهنة العلم.

"ليف تولستوي"

أكثر ما يضرّ المعرفة الحقيقية هو استخدام كلماتٍ، ومفاهيمَ ليست واضحة. وهذا ما يفعله العلماء المُتخيلون باختلاق كلماتٍ، ومصطلحات غير واضحة، وغير موجودة من أجل شرح مفاهيمهم غير الواضحة.

"ليف تولستوي"

لا يعلم أحدٌ حقًّا السِّرّ الذي يكمن وراء تقديس الأمور لدى بني البشر، هي لديهم دون شعور حاجة كالماء والهواء.

بعد أن استقرَّ ودن بميث على جبل ما اقترب منها قال بصوتٍ هادئٍ:

"لدى بني البشر منكم حِكَمٌ جميلة نتعلم منها نحن أيضًا، وإنَّ بعضها هو إسقاط من شعرائنا لشعرائكم، وهذا لا بأس به، ولا أريدك أن تبحثي وراءه، أريدكِ إن قررتِ العودة وهذا القرار سيكون قريبًا أن لا تمجِّدي شخصًا، ولا تصدّقي أحدًا إلَّا بالدليل.. كما أن ما رأيته منا نحن الجِنّ ليس شيئًا معجزًا، فلا تهوِّلي من أمرنا، وتذكّري كلّ الذي مررتِ وتفكرين فيه ليس لاحقًا بل الآن". ميث أحسّت كأنه الوداع، فخنقتها العَبْرة واقتربت من ودن كأنها تريد أن تشمَّه تتزوَّد منه تتأمّله، فابتسم هو لذلك، وقال لها: "ما رأيك برحلة أخيرة آخذكِ فيها بين الجبال والوديان. ترين وجوه العالمين، ولا ترين نأخذ من الحكم أجملها في الطريق.. تتزودين منها لتبصري نفسك، وتتفكري في كل ما حصل، ومررتِ به"

أجابته بنعم والابتسامة تعلو وجهها، وبعض الدموع التي كانت تسارع لمسحها..

طالما لم نستطع أن نعرف ما بداخلنا، فما جدوى أن نعرف ما بخارجنا؟ هل يمكن لإنسان لم يدرك نفسه أن يدرك العالم؟ هل يمكن لأعمى داخل منزله أن يصبح بصيرًا خارجه؟.

"جريجوري سكوفورودا"

طلب ودن من ميث أن تنظر إلى نفسها في كلِّ الشعوب؛ لأنّ العالم يكمن في كلِّ روح، ثم أخذ بيدها يجوب العالم كتفًا بكتف، وكانت المحطة الأولى بلاد الصين، فالماضي لا يزال يسكنها تمامًا كما الحاضر إلَّا أن سورها العظيم أصبح اليوم بعد أن كان حماية

مُتَنَفَّسًا للبعض، ومكانًا للتفاخر بالعراقة.. أمّا الحماية، فقد نقلت إلى نطاق أوسع، وهناك في بلاد الصين سمعت ميث من أحد كهنتها:

(إنك لا تستطيع أن تمنع طيور الحزن من أن تحلِّقَ فوق رأسك، ولكنك تستطيع أن تمنعها من أن تعشِّش في شعرك.).

كلُّ العجب من الطبيعة التي مرّتْ عليها ميث كيف تتغيّر من بلد إلى أخرى، قد يكون المحصول واحدًا، ولكن طريقة الزرع والحصاد تتغيّر بين جغرافيا وأخرى — متى حصل هذا والبشر في يوم كانوا من أصل واحد؟

من أقدم ما قيل إن آدم هبط إلى الأرض في الهند، ولا يُعلم مصدر ذلك القول حقيقةً بل يؤوّل، هم البشر هكذا يحبّون أن ينسبوا الأصل لجماعتهم على كلّ حال؛ لأنهم يحبُّون شعور العظمة، بل وأحيانًا يحبّون الجبابرة لمجرد أنهم تمكّنوا من السلطة ولكن في الوقت نفسه يكرهون الظلم الذين يعيشونهم هم، ويكرهون جبابرتهم لا جبابرة غيرهم..

في الهند على جبلٍ به معبد قرأ ودن لميث حكمة هندية قديمة كُتِبَتْ في أحد أزِقّتِه:

(ليس من الحكمة والمنطق أن تعيش في الماء، وتعتبر التمساح عدوًّا لك.).

وهذا من عجائب البشر.. يشتكون الظلم، والمعاناة التي يعيشونها، وهم الذين لو تأمَّلوا لوجدوا أنهم أنفسهم مَنْ أوقعوا تلك الأرواح، والأجساد فيها.. ليس مفهومًا لماذا يحبّ البشر أن يعيشوا المعاناة، ويقنعوا أنفسهم بذلك؛ ليعيشوا طعم السعادة بعدها، إن

كنت تخاف الارتفاع، فإمّا أن تقاوم خوفك، وتتغلب عليه، أو أن تبعد عنه.. وعلى مثل هذا يقاس كلّ شيء تقريبًا..

في خط الحرير ذاك كان لا بُدّ من التوقف في بلاد فارس، فتلك الحضارة كانت ولا تزال متشبّثةً بماضيها، حتى أنها أدخلت الكثير من معتقداتها إلى كلّ دين جديد تدينه وسعت جاهدة إلى أن تبثّ معتقداتها في العالم كلّه، وقبله من كان يجاورها من حضارات بوسائل شتى، وكان أمهرُ تلك الوسائل العبث بالقلوب، فتلك الحضارة تعي جيّدًا تأثير القلب، والمشاعر على فكر الإنسان، ولهم في التاريخ مؤثّرون عظام، وربما سبب نجاح أصحاب تلك الحضارة أنهم عندما كانوا ينظرون إلى تاريخهم كانوا يبنون به سلّمًا، وأساسًا يأخذهم للتطوّر بأية طريقة كانت، حيث إنهم يؤمنون باليقظة والقلب النابض بالمعتقد. هناك في حيّ بسيط كان على وشك التطوُّر ولكنه توقف لما تمسّك أهله بمعتقدٍ آخر، وبه أغلقوا قلوبهم عن شيءٍ غيره، وعلى صخرة قديمة نُحِتَ: (القبر الحقيقي ليس في الأرض، بل في القلوب.).

هو القلب أينما كان موقعه، فهو الذي يتحكّم بأفعال البشر حقيقةً، لا عقولهم كما تختلف رغباته من نبضةٍ إلى أخرى.. إن لم ينقّ بين الحين والآخر يثقل على صاحبه، وهناك تبدأ كل الآفات، ولعلّه هناك بدأت فكرة العدمية بين تلك الرواسب فظنّ أهلُها أنه فكرٌ جديد.. أوهام البشر لا تنتهي..

وعلى خط الحرير أحد أقدم خطوط التجارة العالمية، وفي بلاد الرافدين، حيث نشأت أقدم الحضارات، وكانت محطة

تطوّر الجِنّ والأنس منشأ السحر، والكتابة تحدث التقلبات، و"سومر" لُمْعة في ذلك، إلَّا أنهم بعد هذه التقلبات كانوا قد اندثروا فقبل قرنين من الزمن كان البشر قد نسيهم، ولم يكن الذكر إلَّا للبابليين، والأشوريين والفضل في ذلك للتوراة والتاريخ القديم، لكن حين كان التنقيب بحثًا عن سر البابليين، ومملوكات الأشوريين وجدوا حضارة السومريين، وانتعشت الدراسات، بل وصارت الأشهر، وهناك تكمُنُ الحكمة.. نظر ودن إلى ميث، وهم يتجوَّلون بين الآثار "قد تحاولين أن تبرزي، وقد تنجحين، وكلّ ذلك سيندثر في يوم، البقاء للبصمة التي تصنعينها".

والبصمة الأشهر في العالم، تلك التي كانت منذ قديم الزمان، وما زالت علامات الاستفهام عليها كبيرة وكثيرة لدى البشر — في الواقع لدى بعض المخلوقات السر ليس سِرًّا — الحضارة الفرعونية. ميث عشقت الأهرام من صِغَرِها، وقد زارتها في طفولتها مع والدها إلَّا أنَّ حرارة قد أصابته، فقطعوا الرحلة، وعادوا، في ذلك الوقت تعجَّبت؛ كون الحرارة اختفت بعد إقلاع الطائرة بدقائق، هي الآن تعلم لماذا..

مرّت عوائل كثيرة على الحكم الفرعوني.. تناسل بعضها من بعض، وشذّ عنهم البعض، عبدوا آلهة مختلفة، وتجبّروا على الخلق في حِقَب، وكانوا ملوكًا محبوبين في حِقَبٍ أخرى، وهناك أيضًا لم يخلّد إلّا من أحدث بصمة واضحة في زمنه ظلت باقية لمن بعده.

– هل تعلمين أجمل حكمة فرعونية تناسبك؟

– أخبرني.

- "لا تحمِّلْ قلبك فوق ما يحتمل، ولا تشغل عقلك بما لا يفيد."

- صحيح.. أقرُّ بأنني أحتاج ذلك (تضحك ميث) ما رأيك في أن نأخذ وقتًا أكثر بين هذه الأهرام، بها أتذكر أبي.

- لوحدكِ؟

- لا، إن كنت قد تعلمت شيئًا من مسيري معك ومن هذه الشعوب، فهو أنك قد تنجز وحدك شيئًا، ولكن معًا ننجز أشياءَ.

- كم هذا جميل! هيا اختاري الاتجاه.

صعدت ميثُ الأهرام أكثر ممَّا مشت بينها، تجوَّلتْ بين غرفها، وأحست بأنها روح بالعوالق فيها، رأت مدافنهم، وكيف أنهم بعد العِزّ لا شيءَ أكثر من رفات ولكن -لما أنجزوه- رفاتهم هذه تحترم، أحست بطيف والدها فقط؛ لأنها أرادت ذلك، ابتسمت ابتسامة صادقة، وحين شعرت بالاكتفاء سألت ودن عن الوِجْهة القادمة..

حلَّقَ ودن وبجواره ميث فوق سماء قارة أوروبا بين جبالها، ووديانها مدن الحرب، ومدن الحب والسلام، هناك أخبر ودن ميث بأنَّ هذه القارة لم تكن دائمًا على هذه الحال خضراء كما تراها، فهي متقلبة، ويتوقع الجِنُّ بأن تتقلب مجدَّدًا بعد عقود، بها من التجمعات الشيطانية أكثر من أيِّ الحضارات الخمسة التي مرُّوا عليها ميَّزَتْهم بأنهم يعملون بخفاء.. أهلها يؤمنون بالأرواح أكثر من الجِنّ والحقيقة هي أن الأرواح لا تتسكع هنا وهناك كما يظنون. بها جنّات يخاف الإنسان أن يقربها إلى درجة أن البشر الحديث قد نسيها، الطريف

فيهم هو أن نساءهم كنّ سببًا رئيسًا في تعدد لهجاتهم، وكان للجِنِّ دورٌ في ذلك أيضًا، ضحكت ميث وقالت له: "النساء سبب كلّ شيء تقريبًا"، فأجابها ودن مؤكّدًا عليها "نعم! في كلّ الخلق، وهذا أمرٌ جيّد.. إنه أمرٌ جيّد".

(عندما تُثقف رجلًا تكون قد ثقفت فردًا، وعندما تثقّف امرأة، فإنما تثقف عائلة بكاملها).

"سقراط"

لذا بعد أن اضطهدت هذه القارة العجوز المرأة رأت أنها تتراجع، ولكن المرأة قامت بنفسها، فكانت هي مَنْ قامت بأول ولادة قيصرية بنجاح في عباءة رجل وكانت تناضل في كلِّ المجالات، هناك تراجعت عن قراراتها، وما أجمل تراجع الذكر حين يصبّ في مصلحة الأنثى!.. ولكنَّ بعضهم وَرِثَ عقدة التفرقة، فكَبُرَ على أن يفرِّقَ بين الألوان، أو الأعراق، أو الأديان لمجرّد التفرقة لا لشيءٍ آخرَ، فكل أسبابه واهية تضعف أمامه إذا نُوقش فيها، وهذا كان سببَ معاناة أخرى، فالتفرقة تضعف البشر، بل تضعف أيّ مخلوق، تولّد الخوف والقلق من كلّ شيء، وتكون السببَ حين تتطوّر في مجالات، وتتأخر في كلّ شيءٍ، ثم تبحث عن السبب، ولا تراه أمامك — العنصرية تأكل الروح وقوتها — فلولا اختلاف الألوان لما تولَّدَ قوس المطر، وأصل تلك الألوان لون واحد..

يا ابن آدم خالفني، واختلف عني
حتى وإن كنت دون معتقد
أبيضَ كنت، أو أسود
فقط كن أنت، ولا تكن هم!
دع ذاتك تسمو، وعانق عمق الحلم
يا ابن آدم خلقك اللّه مُختلفً
فبربك، باختلافك اعترفً
وفي تفرُّدك احترفً

"أنيس شوشان"

ها هو المحيط الأطلسي يفصل بين قارتين، تقف ميث فوقه.. تظن أن الوجهة إلى القارات الجديدة، فهي لا تعرف طرق السماء جيّدًا، ولم يكونا على ارتفاعٍ كافٍ لترى القارات كما في الخرائط، ولكن المسير طال، فسألت ودن:

- إلى أين نتجه؟
- جبل موميرو.
- لم أسمع به من قبل!
- هو في منتصف الأرض فيه الصخرة السوداء تحوطه أربع جزر صغيرة يعلوها من السماء النجم القطبي الشمالي، هو المكان الذي تشير إليه بوصلتكم بفضل الحقل المغناطيسي العظيم.
- وهل يجهله البشر؟
- بل يعلمونه علم اليقين، ولكن ليس عامتهم، وله أسماء

عديدة.. (بتردّد قال) ولكن يا ميث، ليس هذا وقت الصخرة، ولا الأرض، بل هو وقتكِ.

- لماذا؟

سكت ودن عنها حتى وصل إلى ما بعد الجزر إلى البحيرة التي تطوِّق "موميرو" واقترب منها، خالقًا دوّامة في الهواء على مقرُبة من الماء باتّجاه "موميرو".

بدأت صورة تتشكّل في الدوامة أمام ميث، وبين يَدَيْ ودن، لم يكن الأمر لطيفًا، فقد كانت هي هناك مشبوكة بالأجهزة قد نَحَلَ جسدها، واصفرّ وجهها كادت ألَّا تتعرف على نفسها، لولا وجود خالتها وجدتها — صديقة أم والدتها — والطبيب أمامهما يطلب الإذن بإزالة الأجهزة، فالجسد متعب، والرحمة به قد تكون الخيارَ الأمثل له، والعائلة ليست مقتنعة، ولكنهما يصدقان الطب، وما يقول الطبيب، فطلبتا منه أن يصبر إلى أولى ساعات الصباح ليعطيهما وقتًا للوداع الأخير. هناك اختفت الدوامة وبان على ودن التعب من الجهد الذي يبذله في إيصال الصورة لها، وهناك أيضًا بان الخوف والقلق على وجه ميث.. فأجابها ودن باختصار: "نبض جسدك هو ما يبقيكِ في هذا العالم، إن توقَّفَ ستختفين منه.. ليتني أجد إجابةً غيرها لكِ.." . هي كانت لا تريد العودة؛ لأن الحرية في وضعها هذا أجمل، ولا ملذّات تحتاجها هنا وكلّ ما تعلمته مع ودن كان قيّمًا، وقد ربطها بأمّها، وتعرّفت أخيرًا عليها.. ولكن ما فائدة كل تلك الدروس إن لم تعد، العزاء الوحيد هو أن ودن سيكون معها، وإن لم تستطع رؤيته، فهو سيترك لها الإشارات..

(الشخصية لا يمكن أن تتطوَّرَ بسهولة، وبهدوء. يمكن فقط من خلال الألم، والمعاناة أن تقوى الروح، ويلهم الطموح، ويحقق النجاح.).

"هيلين كيلر"

تأملت في وجه ودن.. سألته عمّا سيحلُّ بروحها إذا عادت، وإن لم تعد، فلم يستطع لذلك إجابة...

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الآية: ٨٥ / سورة الإسراء

فكتمت الألم في داخلها حتى انتفضت بها روحها إلى أعالي السماء، ولحقها ودن هناك.. فتحت عينيها، فتسنَّى لها أخيرًا منظر الأرض من الأعلى، هي لم تستطع أن ترى إلَّا على مَدّ البصر، وكان آخرُ ما رأته. جدارٌ جليديٌّ لا ينتهي كأنها في دائرة والجليد حلقته وسوره. وللمرة الأخيرة -ربما- التفتت ناحية ودن تسأله:

- ما هذا الجليد يا ودن؟

- إذا سرت من هذا الاتّجاه ستزورين أرضًا خضراء ذات ينابيع، ثم هناك "جبل قاف" وبعده حاجز إن عبرتِه سترين أقوامًا آخرين، وأرضًا أكبر من أرضكم.. إن هذه الأرض مَحْمِيّة بقُبّة تخلفها أرض أخرى بمخلوقات أخرى، ثم إن وراءها قُبّة، ومن خلفها أرض، ثم إن وراءها قبة، وهكذا إلى أن تعدِّي سبعًا، قد سبق أن حاول

تجاوُزها الإنسان، وقد سبق أن تعايش مع بعضِ مخلوقاتها بعضٌ من بني آدم، ولكن النتيجة لم تكن جيّدة..

..الوقت يداهم مَيْثَ، فأول الصباح أقبل، والطبيب فوق رأسها بدأ ينزع الأجهزة..

الدعاء الأخير

يا ميثُ إن بعد هذه الرحلة لا يوجد لكِ معي وقت أكثر، فإن اخترتِ أن تعبري الجليد للأرض التي بعدها، فلن أستطيع أن أرافقك، ومن يسكن هناك لا يسكن هنا، ولا عودة إلى هنا؛ لأن جسدك سيكون تحت التراب، ولا علم لي إن كنت ستنتقلين إلى حيث الباب والضوء، أم ستتركين في الأرض الثانية، أمَّا إن اخترتِ العودة إلى جسدك، فأنا لا أستطيع أن أعدك بأنكِ ستتذكرين كلّ الذي حصل، ولكن الدرس ستعرفينه، والعِظَة ستسكنك حتى وإن جهلتِ مصدرها.. وأنا سأكون دائمًا هناك، وآخر أمانة هي لكِ في عنقي: يا ميثُ اعلمي بقدر حبي لكِ، فإنني وكلّ ما مررتِ به "فتنة"، فاحكمي بالعقل، ولا تتّبعي هوى النفس.

يا ميث قد عملتِ ما عملتِ، والآن لكِ الخيار.. إمَّا العودة، وإمَّا مواصلة المشوار.

تمَّت لربّما..